حالات نادرة (5)

قصص غريبة تدور أحداثها حول فتيات كويتيات



م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

الطبعة الأولى

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

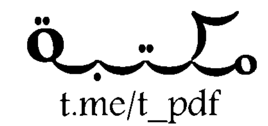
حالات نادرة 5

العنوان

حالات نادرة 5

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



ردمك:

978-9921-737-00-4

رقم الإيداع: 2019/1516

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع

نوڤا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com

مكتبة | 778
سُر مَن قرأ

حالات نادرة 5

قصص غريبة تدور أحداثها حول فتيات كويتيات

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



تنويــه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها

مقدمة

مساء غريب تختلط فيه مشاعري.. إنه مساء أول أيام عيد الفطر.. حيث استيقظت يومها باكرا.. وارتديت ثيابي الجديدة.. وقابلت أقاربي.. ووضعت النقود التي لم تطوَ بعد في جيبي.. ليبقى السؤال في ذهني حتى هذه اللحظة.. أين العيد؟!!.. لقد شعرت أنني قمت بتأدية الواجب فقط حين قمت بزيارة بيت العائلة وتناول الغداء مع أشقائي وأُسرهم.. إذ ظللت هناك منعزلا عاجزا عن الاندماج.. فالأعياد لا تكفي لوحدها كي تكون سعيدا.. بل يجب أن تكون الأعياد في رأسك أيضا!!.

أذكّر نفسي أن الإنسان في وحدته فقط يفهم الأشياء العميقة.. وهذا ما جعلني أحاول الانغماس في عالمي الذاتي حال عودتي.. لأبحث عن شيء أشاهده عبر موقع (Netflix).. مشكلة عملية البحث عن فيلم مناسب أطول من الفيلم نفسه!!.. لذا فوجئت أن الساعة اقتربت من الحادية عشرة مساء رغم أنني شاهدت فيلما واحدا فقط.

شعرت بعدها بالخمول والرغبة بالذهاب إلى الفراش.. لأطفئ الأنوار استعدادا للنوم.. وأتجه إلى سريري الملتصق بجدار

الغرفة.. ذلك الجدار الذي يعرف كل أسراري.. إنني كالأطفال الذين يعشقون الأماكن الضيقة والزوايا.. أعترف أن هذه العادة استمرت معي منذ طفولتي.. ربما سببها البحث عن الأمان.. ثم.. أفتح ضوء الكشاف في هاتفي.. وأمسح به كل زوايا غرفتي.. كنت أعشق هذا التصرف في طفولتي.. فأشعر أنني مستكشف لأحد الكهوف.. للأسف.. حتى هذا الشعور الجميل مات.. كل شيء يموت حين نكبر.

و.. لا أعرف متى نمت.. إلا أنني استيقظت فجأة.. ونظرت إلى الساعة الفوسفورية المعلقة في غرفتي.. لأجدها تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل!!.. لقد شعرت أنني محظوظ.. فحين تصحو من النوم قبل شروق الشمس ومن دون سبب واضح.. وتعرف أن العالم كله في سبات عميق سواك.. تشعر بعمقك كما لا تشعر به في أي وقت آخر.. إنها لحظات ثمينة جدا بالمناسبة.. وهذا ما جعل تلك الفكرة تطرأ في ذهني.. ففي ظلامك فقط ترى نجومك!!.

إذ قمت بتشغيل التسجيل الصوتي في هاتفي.. وقررت سرد مذكراتي.. على أن أنقلها لاحقا على الورق.. ستكون المرة الخامسة.. وهو رقم لم أتوقع الوصول إليه أبدا.. فقد نشرت

مذكراتي لأول مرة عام 2011 حسبما أذكر.. ثم فوجئت بإقبال القراء عليها ومطالبتهم بجزء ثان وثالث.. قبل أن أقرر التوقف عند الجزء الرابع منعا للملل.. إلا أن المطالبات لم تتوقف أيضا.. وباتت تصلني باستمرار لنشر جزء خامس.. أعتقد أنني أملك المزاج الرائق الآن لذلك.. خاصة وأن في جعبتي بعض القصص الغريبة بالفعل.. والتي تندرج تحت ذلك المسمى الشهير (حالات نادرة).

ولو كنت لم تقرأ الأجزاء السابقة.. فلا تدع الأمر يقلقك.. كل ما ستحتاج معرفته أنني طبيب نفسي في أوائل الأربعينيات من العمر.. كويتي الجنسية.. لم أصرح باسمي أبدا لأسباب أنا نفسي أجهلها.. ربما لأنني لا أسمع اسمي كثيرا.. فالجميع يناديني بلقب (دكتور).. أعمل في مستشفى الطب النفسي.. حيث بت متيقنا أن مرضى الداخل هم نتاج مرضى الخارج!!.. متوسط القامة.. نحيل الجسد إلى حد ما.. أرتدي نظارات لا حاجة لي بها أصلا.. لكنها تمنحني بعض الوقار.. كما امتلأ شعري بالشيب لعامل الوراثة.. أعزب حتى هذه اللحظة لأسباب عديدة ذكرتها سابقا.. أهمها التقديس الشديد الذي أكنه للأنثى.. وخوفي ألا أكون زوجا مثاليا.. ربما أنا مصاب

بـ(فوبيا) الزواج* من دون أن أعلم!!.

كما أنني أعشق حياتي الخاصة وأعشق وحدتي.. فأنا معدوم الأصدقاء تقريبا.. أعيش في شقة أنيقة في منطقة (الشامية).. وهو أمر غير مألوف لرجل أعزب في مجتمعاتنا الخليجية.. وربما العربية.. مما أثار موجة من الغضب في محيط عائلتي.. لكني واجهتهم وطلبت منهم احترام قراري كونها حياتي الخاصة.

هكذا الأمور دوما في مجتمعنا.. أنت مجرد شخص بسيط لا أحد ينتبه لوجودك.. لكن لو فكرت للحظة في الخروج من القطيع.. تصبح حديث الساعة.. فهم يريدون التدخل بتفاصيل حياتك.. وحتى لو ذهبت في ستين داهية.. يريدون معرفة إلى أي داهية بالضبط!!.. كما أنهم يتهمونني دوما أنني غير اجتماعي.. فأسكت ولا أرد.. ولكن في داخلي أقول: ((أنا اجتماعي جدا.. لكن ليس معكم)).. إنني لا أجادلهم أبدا.. وهذا ما يثير غضب عائلتي.. خصوصا شقيقي الأكبر الذي يرى

---

* الـ(فوبيا)-(الرهاب) باللغة العربية- لفظة شهيرة جدا.. وهي الخوف المرضي غير العقلاني تجاه شيء ما.. كالخوف من الحشرات.. أو الأشجار.. أو المرايا.. إلخ.. وهناك قائمة طويلة جدا بكل مسببات الـ(فوبيا) موجودة في العديد من المواقع المتخصصة على شبكة (الإنترنت).. علما بأن لفظة (فوبيا) مشتقة من الكلمة اليونانية (Phobos) وتعني (الخوف).. أما الخوف من الزواج فيطلق عليه (جاموفوبيا) (Gamophobia).

أن انتقالي للسكن وحيدا سببه رغبتي بتحويل المكان إلى مرتع للموبقات.. فكيف أرد على من يفترض بي سوء النية لمجرد رغبتي أن أكون وحيدا؟!.. عموما.. بعض المجتمعات محافظة جدا.. على تخلفها!!.. ولا نملك تغييرها.

أنا أحب أفراد عائلتي.. لكني لا أشبههم.. ولا أشعر بالانتماء إليهم.. إلا أنني بالطبع أزورهم مرة أو مرتين أسبوعيا لأرى والدتي أطال الله في عمرها.. أما والدي فقد توفي منذ زمن طويل.. ولا داعي للتذكير أنني مرهف الحس.. أحمل نظرات حزينة لا أتعمدها.. وأعشق عملي كطبيب نفسي.. وأقضي أوقات فراغي دوما بالقراءة ومشاهدة الأفلام الوثائقية أو الأفلام السينمائية على سبيل التسلية.

لقد تعلمت الكثير في حياتي المهنية.. تعلمت أن الإنسان يعاني لأنه متزوج.. ويعاني لأنه أعزب.. ويعاني لأنه لم ينجب.. ويعاني لأنه أنجب.. حتى بت أشعر أن الإنسان مخلوق من طين.. وتوتر!!.. كما تبين لي أن الإنسان ما زال بدائيا.. ولم يتطور سوى الكهوف فقط!!.

وربما يستفسر البعض عن سبب تخصيص مذكراتي دوما للحديث عن الفتيات.. لقد أجبت على هذا السؤال أكثر من مرة.. والإجابة دوما صادمة.. أظن أن كل الإناث في عالمنا العربي وُجدْن بسبب محاولة فاشلة لإنجاب ذكر لا أكثر!!.. فدائما الأنثى مصدر للعار بالنسبة لأسرتها.. دائما هي التي تثير قلق الوالدين.. ولا بأس لو كان الابن خريج سجون ارتكب ما يمكنه ارتكابه من موبقات.. لكن ويل للبنت إذا عاشت قصة حب صادقة قد تنتهي بالزواج.

وهذا ما يجعلني أظن أن الأنثى كالبحيرة.. انعكاسها جميل لكن الكثير من الأسرار تعيش في أعماقها.. وأرى أن وجودها في حياة أي رجل مهم للغاية.. حتى في مكان عمله.. إنها مثل حبة الكرز على الكعكة.. تزيدها جمالا رغم عدم وجود دور مهم لها.. وإذا كان وراء كل رجل عظيم امرأة.. فأنا واثق أن وراء كل امرأة عظيمة اكتئاب!!.. بسبب الضغوط التي يمارسها المجتمع عليها.. وهذا ما يجعلها تحتفظ بأسرارها خوفا أن يستغلها أحدهم ضدها.. وفي النهاية.. هذه الضغوط.. وهذه الأسرار.. تجعلها أكثر عرضة لزيارة طبيب نفسي.

والمرض النفسي غير مفهوم في مجتمعاتنا بالمناسبة.. خاصة الاكتئاب.. فمن يحاول إقناع المصاب بالاكتئاب أن الحياة جميلة ورائعة.. كمن يطلب من المصاب بالزكام أن يشفى لأن الحياة جميلة ورائعة أيضا!!.. فالاكتئاب مرض حقيقي له جانب عضوي يتعلق بكيمياء المخ.. ويحتاج إلى أدوية وجلسات علاجية.. أقول هذا الكلام حتى يعرف القارئ أن الأمراض النفسية حقيقة علمية.. ولا علاقة لها بالتديّن من عدمه كما قد يظن البعض.

والآن.. بعد هذه المقدمة.. دعونا ندخل عالما آخرَ من المشاكل والشخصيات التي ملأت قصصها حياتي بالكوابيس.. حتى بت أشعر أن العالم الذي يعيشه الناس مزيف.. بينما عالمي أنا هو الحقيقي.. بعد أن فهمت الحياة ورأيت حقيقتها في عين مريضاتي.. وعرفت من خلالهن أن الحياة كانت أجمل قبل أن نفهمها.

والآن.. موعدنا مع 7 فتيات.. ومع 7 قصص جديدة ستجعلك تتساءل عن كم الأسرار التي تحدث حولنا من دون أن نعلم بوجودها.. حتى لتكتشف أنك لا تعيش في مجتمع واحد.. بل في مجتمع بداخله ألف مجتمع!!.. دعكم من محاولاتي

الدائمة لإصلاح ما يمكن إصلاحه في حياة كل من يزورني.. لست شمعة تحترق من أجل أحد.. لكني أحاول صناعة الشموع لكل مرضاي.

هل القصص غريبة؟!.. أراها كذلك.. هل هي شيقة؟!.. الأمر يعتمد على ذائقتكم.. لكنها منوّعة منعا للملل.. فلتتابعوها.. وستكون لي عودة بعد ذلك.

الدكتور (.........)

إنها مكتبة .. ولا شيء يشبه ذلك



تزامن!!

تحكيها: (هنادي)

العمر: 20 سنة

أخشى أحيانا أن تسبب لكم بدايات قصصي بعض الملل.. فهي دائما تبدأ من مكتبي في مستشفى الطب النفسي.. وخلال ساعات عملي.. لكني أراهن على أحداث القصص نفسها بما فيها من غرابة.. والتي أسمعها بين حين وآخر على لسان من يزورني.. سواء كان مريضا.. أو من يرغب بالفضفضة على الأقل.. لتتكون من تلك القصص مذكراتي التي حملَت ذلك الاسم الشهير (حالات نادرة).

آملا أن تكون تلك القصص -أو الحالات- مسلية.. هكذا هي القصص الغريبة دوما.. مسلية لمن يقرؤها.. مؤلمة لمن يعيشها.. تماما كمن يستمتع بقصة (روميو وجولييت).. فلا يمكن القول أنهما استمتعا بقصة حبهما التي انتهت بانتحارهما!!.. عموما.. إنني أعيش حياة غريبة متناقضة.. حتى بت أصدق كل شيء سوى ما تراه عيني.. كلامي متناقض؟!.. بالضبط.. هذا ما أقصده.

بعيدا عن كل هذا.. كنت أجلس -كالعادة- في غرفتي في المستشفى وفي نوبتي المسائية.. مرتديا رداء الأطباء.. مع نظاراتي التي سبق وأن ذكرت أنني لا أحتاجها كثيرا.. ألتقط نفسا عميقا وأنا أشاهد من خلال شاشة هاتفي لقطات لرجال

أعمال بدؤوا من الصفر ويتحدثون عن تجاربهم الشخصية كنوع من التحفيز.. إلى أن سمعت طرقات على الباب.. وقبل أن أستوعب الأمر.. فتح الباب بخجل.. لأضع هاتفي جانبا بسرعة.. وأنظر إلى الزائر.. إنها فتاة سمراء البشرة إلى حد ما.. دقيقة الملامح.. طويلة القامة.. أطول مني إلى درجة ستشعرني بالحرج لو وقفت مقابلا لها.. وقد كانت ترتدي لباسا رياضيا ضيقا.. كما ربطت شعرها بطريقة ذيل الحصان.. أعتقد أنها في أوائل العشرينيات من العمر.

نظرت إليها مرحبا.. وطلبت منها الجلوس وقد لاحظت أن نظراتها خاوية.. وكأنها مرت بمصيبة ما لكنها تجاوزتها منذ فترة قصيرة.. إنه الاكتئاب على الأرجح.. أشهر مرض نفسي في التاريخ!!.. ولا أبالغ لو قلت أنني أعالج العشرات من حالات الاكتئاب يوميا.

رحبت بها وسألتها عن سبب زيارتها.. لتقول بحزن:

- لقد ذهبت منذ بضعة أيام للمبيت عند شقيقتي المتزوجة.. فربما تتحسن حالتي النفسية.. لكن لا فائدة للأسف.. هذا ما جعلني أخبر شقيقتي أنني سأخرج وأتجول بسيارتي قليلا رغم اعتراضها بسبب الوقت المتأخر.. وكلامها بأنني

لم أكن لأجرؤ على ذلك لو كنت في بيت والدي.. لكني رجوتها ألا تخبر أحدا.. وأنني بحاجة فعلية للخروج وإلا سأختنق.. ثم.. لا أعرف كيف انتهى بي المطاف إلى هنا!!.. لقد وجدت نفسي قريبة من مستشفى الطب النفسي.. فشعرت أن القدر قادني إليك.. لعلّك تساعدني على تجاوز تلك الأزمة.

نظرت إلى الساعة المعلّقة في غرفتي فوجدتها تقترب من منتصف الليل.. ثم سألتها بهدوء:

- لا عليك.. ما هي المشكلة بالضبط؟!.

أخرجت تنهيدة عميقة.. لتقول:

- لقد مر حوالي شهرين يا دكتور.. وما زلت عاجزة عن تجاوز ما حدث.. إنني منكسرة.. حزينة.. أشعر بالظلام إن صح التعبير.. وكأن هناك كيانا أسودَ يجثم على روحي.. حتى التنفس أصبح مهمة عسيرة بالنسبة لي!!.

حسنا.. مقدمة ليست بجديدة.. فلا يمكن أن يزورني شخص سعيد يرى الحياة رائعة.. لذا لم أعقب على كلامها.. بل تركتها تكمل:

- هناك خطأ يرتكبه المرء في الماضي.. هذا الخطأ يصبح بمثابة السجن.. إنه سجن بلا قضبان أو حراس.. أو حتى رفيق زنزانة متنمّر.. ومع ذلك لا تستطيع الخروج منه.. فتعيش فيه إلى الأبد.. إن قصتي غريبة يا دكتور.. ولا أعرف.....

قاطعتها مبتسما:

- لا تعرفين إن كنت سأصدقها أم لا.. لقد سمعت تلك العبارة كثيرا.. لا تخشي شيئا.. تحدثي.. وكلي آذان مصغية.

تنهيدة حارة أخرى خرجت منها.. ثم:

- القصة بدأت صباح ذلك اليوم الأسود من شهر ديسمبر الماضي.. حين خرج جميع أفراد العائلة إلى الشاليه.. وقد ذهبت معهم رغم اقتراب موعد الاختبارات.. فقد أخذت كتبي معي على أن أدرس هناك.. لكن هذا لم يحدث بالطبع.. إذ مر اليوم الأول بأكمله في اللهو مع قريباتي.. وكذلك اليوم الثاني.. حتى تيقّنت أنني لن أفتح أي كتاب لو بقيت هناك.. خاصة مع مزاجي السيئ بعد أن أتلفت هاتفي حين وقع مني في حوض السباحة الموجود داخل الشاليه!!.. فأخبرت والدي أنني سأعود إلى البيت لأنني

فقدت التركيز بكل شيء.. وقد وافق مباشرة كونه يثق بي ثقة عمياء.. ويراني حكيمة الأسرة كما يطلق علي دوما.. لا أقولها غرورا.. لكني أملك عقلا راجحا بالفعل.. وأضع كل اهتمامي في دراستي على عكس الكثيرات في مثل سني.. المهم أنني عدت برفقة السائق إلى بيتنا الذي يقع في منطقة (صباح الأحمد) السكنية.. وهي منطقة جديدة كما تعلم.. لم تصلها الخدمات كاملة ولم يصلها المد العمراني بعد.. مما جعلني أشعر بشيء من الوحشة وأنا أدخل البيت رغم أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة مساء.. كنت أعرف أنني سأمر بهذا الشعور.. لكن لا يوجد حل آخر.. آملة أن تختفي تلك المشاعر حالما أصبح في غرفتي وأغلق الباب على نفسي وأنهمك في المذاكرة.

كنت مندمجا مع كلامها.. فشعرَت بشيء من الارتياح كما بدا لي.. لتكمل:

- وبالفعل.. نسيت نفسي تماما أثناء انهماكي بدراستي.. ليمر الوقت من دون أن أشعر.. حتى انتبهت فيما بعد أن الساعة تجاوزت التاسعة مساء بقليل.. فرغبت بالاستراحة

قليلا.. ورحت أحاول -بيأس- إصلاح هاتفي والنفخ فيه بطريقة غبية لعله يجف من البلل ويعود إلى العمل.. لكن هذا مستحيل بالطبع.. لا بد من أخذه غدا إلى ورشة تصليح.. أو استبداله بهاتف جديد.. فرحت أبحث عن جهاز الـ (Ipad) الخاص بي لأزور مواقع التواصل الاجتماعي.. وبدأت أتواصل مع فتاة تعرفت عليها منذ فترة قصيرة نسبيا عبر تطبيق (Instagram).. الغريب يا دكتور أنها أخبرتني أن هاتفها كذلك تعرض للتلف يومها.. صدفة؟!!.. ربما.. رحنا نتحدث بعدها حول أمور مختلفة.. ثم طلبت مني أن أرسل لها صورتي لأنها لم ترني من قبل على حد قولها.. خاصة وأن حسابي يخلو من أي صور لي.. تماما كحسابها.. فكلانا غير مولعتين بالتصوير كما تفعل الكثيرات.. وربما هذا ما جذبني لصداقتها.. حيث كنا نتشارك نفس الاهتمامات تقريبا.. والواقع أنني لم أجد ضررا في ذلك.. لكن.. حين أرسلت لها صورتي.. ردت علي بآخر ما توقّعْته.. فقد سألتني فجأة برسالة نصية: ((هل تمزحين))؟!.. سألتها بغباء عما تعنيه.. وبعد ردود منها ومني.. أرسلت لي صورتها الشخصية والتي رأيتها لأول مرة!!.. الصورة صورتي أيضا يا دكتور!!.

نظرت إليها بغباء.. ثم قلت:

- هل تعنين أن الفتاة كانت تنتحل شخصيتك؟!.

قالت بحدة غير مفهومة:

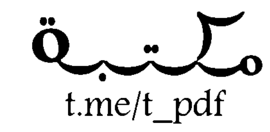
- هذا ما بدا للوهلة الأولى.. أتذكر أنني أرسلت لها رسالة صوتية أطلب منها أن تخبرني باسمها الثلاثي.. لأكتشف أنها تحمل اسمي كاملا يا دكتور.. وليس اسمي الأول فقط كما كنت أظن حين تعارفنا في المرة الأولى!!.. وقد أخبرتني كذلك أنها تجلس حاليا وحيدة في البيت مع والدتها المريضة النائمة في غرفتها.. فوالدها متوفّى منذ زمن.. ولديها شقيقان سافرا معا إلى إحدى الدول الخليجية وسيعودان قريبا!!.

قلت باستغراب شديد:

- تشابه الاسم كاملا غريب بحق.. لكنكما لا تتشابهان في الحالة الاجتماعية على الأقل.. فوالدك على قيد الحياة كما ذكرت منذ قليل!!.

قالت بشرود:

- كلامك سليم.. كما أن والدتي بصحة جيدة.. وقد كانت في



الشاليه مع بقية أفراد العائلة.. لكن هناك لغز لم أفهمه بشأن تشابه الأسماء والظروف.. إلا أنني لم أجد الوقت لسؤال الفتاة عن نوع العبث الذي تمارسه معي -إن كانت تعبث فعلا- فقد ازداد اللغز غموضا حين أرسلت لي رسالة صوتية تخبرني فيها عن انقطاع الكهرباء في بيتها للتو.. بيتها الذي يقع في نفس المنطقة أيضا!!.. وراحت تطلب مني أن أبقى معها لأنها تخشى الظلام كثيرا.. المشكلة يا دكتور أن الكهرباء انقطعت في بيتنا بعدها بدقائق قليلة!!!.

نظرت إليها بدهشة من دون أن أرد.. لتقول بتوتر وكأنها تعيش الأحداث مرة أخرى:

- لا أخفي عليك أنني شعرت بالذعر.. خاصة وقد كنت لوحدي في البيت بعد أن عاد السائق إلى الشاليه.. فطلبت من الفتاة تفسيرا لهذه الصدف الغريبة.. لكن هذا ضاعف قلقها كونها كانت تنتظر التفسير مني أنا!!.

سألتها وقد بدوت كطفل يستمع إلى قصة مشوقة:

- ماذا حدث بعد ذلك؟!.

ردت:

- ظللنا نتواصل لفترة من الزمن.. وكل منا تحاول أن تفهم ما يحدث.. إلى أن أخبرتني فجأة أن أحدهم يضرب جرس الباب وقد تذكّرَت للتو أنها طلبت وجبة العشاء من أحد المطاعم.. وأن عليها أن تستجمع شجاعتها لتخرج وتفتح الباب لعامل التوصيل.. فالخادمة نائمة في غرفتها بالطابق العلوي.

غمغمت مستغربا:

- لا تقولي أن أحدهم طرق باب بيتكم أيضا!!.

قالت بجدية:

- هذا ما حصل تماما!!.. لقد تركت الفتاة تذهب لتأتي بالطعام وذهني منشغل تماما بغرابة ما يحدث.. فمن هذه الفتاة؟!.. وهل تنتحل شخصيتي فعلا؟!.. ماذا عن انقطاع الكهرباء عندها؟!.. ثم عندي؟!.. ثم سمعت فجأة صوت جرس الباب.. هنا بدأ توتري يتضاعف.. لا يمكن أن تتراكم الصدف بهذه الطريقة!!.. فذهبت لأنظر من شباك غرفتي المطل على الشارع.. لأرى سيارة صغيرة تخص أحد المطاعم الشهيرة.. فكرت بتجاهل الجرس.. خاصة وأنني

لم أطلب أي شيء على عكس تلك الفتاة المجهولة.. إلا أنني في النهاية قررت النزول بقلب يرتجف فعليا.. وبعد أن سألت موظف التوصيل عما يريد.. أخبرني أن هناك طلبا باسمي.. وأن الحساب مدفوع أصلا!!.

بدأت أتوتر بصراحة.. فأخرجت زجاجَتي ماء من ثلاجتي الصغيرة.. أعطيت إحداهما للفتاة وأنا أطلب منها أن تكمل.. ثم:

- دكتور.. كان الموقف مخيفا لدرجة لا تصدق.. ولا أنكر أن خوفي تحول إلى رعب.. لأمسك كيس الطعام بيدي بعد أن أصر الموظف أن آخذه.. وأصعد إلى الدور الثاني راكضة إلى غرفتي.. لأتواصل مع الفتاة وأخبرها أن ما يحدث يفوق الصدفة كوني أمر بنفس ما تمر به حرفيا!!.. ولو كانت مزحة سخيفة من صديقة ما.. فعليها أن تتوقف فورا.. إلا أن الفتاة تحدثت بعصبية وهي تسألني كيف لها أن تقطع الكهرباء عن بيتنا؟!.. عندها فقط تذكرت أنني حين فتحت الباب لموظف خدمة التوصيل.. وجدت أنوار البيوت المتناثرة حول بيتنا مضاءة.. أي أن الكهرباء منقطعة عن بيتنا فقط.. وبينما كنت غارقة في هذه التساؤلات.. بعثت لي الفتاة رسالة صوتية جديدة تبكي

فيها وتقول بذعر أنها سمعت صوت خطوات في الممر خارج غرفتها.. هنا بصراحة طفح الكيل.. أخبرت الفتاة أن تطلب الشرطة ولا تنقل لي ما يحدث عندها.. وكأن هذا يؤدي لحدوث نفس الأشياء عندي وبطريقة غير مفهومة.. فصاحت وهي تذكّرني أن هاتفها تعرض للتلف وأن الهواتف الأرضية لم تصل بعد لمنطقتنا الجديدة.. وراحت تتوسل إلي أن أساعدها.. ثم.. حدثت مفاجأة جديدة.

قلت بذهول:

- يا إلهي.. لا تقولي أنك سمعت صوتا خارج غرفتك.

ضربت بقبضتها على المنضدة وهي تقول:

- نعم.. نعم.. هذا ما حدث!!.. لقد سمعت أصوات أقدام في الخارج.. أحدهم يركض بسرعة عبر الممر القريب من غرفتي.. عندها فقط.. هرعت لأقفل الباب بالمفتاح وأسناني تصطك رعبا.. أفكر إن كان يتحتم علي الاتصال بالشرطة.. لكن كيف؟!.. فكرت بالتواصل مع إحدى قريباتي عبر وسائل التواصل الاجتماعي كي أطلب منها الاتصال بالشرطة من أجلي.. وبالفعل.. بدأت بكتابة رسالة سريعة لابنة خالتي.. لكن أصابعي تجمدت في مكانها حين وصلتني رسالة أخرى

من الفتاة وهي تبكي بحرقة.. وتخبرني أنها سمعت ضحكة ذكورية خافتة عند باب غرفتها.. وأن أحدهم يهددها بصوت هامس أشبه بفحيح الأفاعي ألا تطلب الشرطة.. وإلا سوف يقتل والدتها النائمة بسلام في غرفتها.

شعرت ببعض الاطمئنان بعد أن انتبهت لحقيقة بديهية.. أن الفتاة تخطت هذا الموقف المخيف.. وهي الآن بأمان معي رغم غرابة القصة.. فطلبت منها أن تكمل.. و:

- لم يطل الأمر كثيرا.. قبل أن أسمع ضحكات خافتة عند باب غرفتي أيضا.. وصوت ذكوري يشبه فحيح الأفاعي.. يهددني ألا أطلب الشرطة.. وإلا سيقتحم غرفتي ويقتلني.. وأخبرني كذلك أنه سيسرق ما يريد من بيتنا ثم يرحل ويتركني بسلام.. المشكلة أن نبرة الصوت تخيفك أحيانا أكثر من الكلام نفسه.. دعك من شعور انعدام الأمان وأنت في بيتك؟!.. صدقني إنه أسوأ شعور قد تتخيله في حياتك.

قلت بتوتر:

- غريب أن تستمر الفتاة بالتواصل معك في ظل هذه الظروف من دون البحث عن حلول أخرى.. كالتواصل مع أحد أقاربها عبر أي وسيلة تواصل اجتماعي لطلب المساعدة.. كما فعلت أنتِ مثلا!!.

ردت بحنق:

- لم يسعفها الوقت مع الأسف.. فقد تعرضت للقتل!!!.

كان هذا آخر ما توقعته.. فرجعت بالكرسي إلى الخلف لا شعوريا.. في حين أكملت هي:

- لقد وصلتني رسالة صوتية ظننتها منها في البداية.. ليتضح أنها من رجل!!.. كان يتحدث معي بصوت بارد مخيف.. ويخبرني أنه اقتحم غرفة صديقتي و.. قتلها!!!.. على عكس ما وعدها به.. قالها وهو يطلق ضحكة خافتة مرعبة.. لا أعرف كم مر من الوقت وأنا عاجزة عن الحركة بسبب الشلل الفوري الذي أصابني.. لكن قلبي سقط من مكانه حين سمعت مقبض باب غرفتي يتحرك.. وأحدهم يحاول فتحه بعنف.. دكتور.. هناك زمن فيزيائي.. وزمن تخيلي.. وزمن نفسي.. الأخير هو الأسوأ!!.. خاصة وقت المصائب.. حين تشعر أن حياتك على المحك.. وأن هناك قاتلا يتربص بك.. لقد التصقت بالحائط معتمدة على إضاءة جهاز الـ (Ipad).. ورحت أصرخ وأقسم للقاتل أنني لم أطلب الشرطة وبإمكانه سرقة ما يريد ويخرج!!.. لكنه لم يتوقف.. إذ راح يأمرني بصوته المخيف أن أفتح الباب.. عندها فقط وقعت عيني على ذلك المقص الحاد

الموجود على مكتبي.. فاتجهت ناحيته.. وأمسكت به بمقبض يدي.. ثم أقدمت على تصرف لم أظن يوما أنني قادرة عليه.. حين فكرت بمواجهة ذلك الدخيل بدلا من انتظاره ليقتحم المكان.. نعم.. فقد شعرت أنني قد أنجو إذا ما تصرفت بطريقة معاكسة لما فعلته الفتاة.. دعك من أن هذا الحل الوحيد المتاح وقتها.. عندها اتخذت قراري.. واتجهت ناحية الباب بسرعة لأفتحه وأنا مغمضة العينين.. وأطعن المجرم بكل قوتي!!!.. حيث جاءت الطعنة في رقبته.. ليقع على الأرض وهو ينتفض وينزف بغزارة.. بالطبع صرخت بقوة ورحت أبكي بانهيار!!!.

سألتها مستغربا:

- جميل أنك نجوت.. وتصرف شجاع منك بالفعل.. لكن هذا لا يفسر هوية تلك الفتاة التي ادعت أنها أنتِ.. وتشابه الأحداث بينكما بهذه الطريقة الغريبة!!!.

اغرورقت عيناها بالدموع.. لتقول:

- لأنك لا تعلم ما حدث بعدها.. فحين أتيت بجهاز الـ(Ipad) كي أستخدم إضاءته لأرى طريقي وأخرج إلى البيوت القريبة طلبا للمساعدة.. تعرفت على الشخص الذي طعنته.. إنه شقيقي يا دكتور.. شقيقي الوحيد..

والذي يكبرني سنا ببضع سنوات.. لقد حاول ممارسة مزحة سخيفة معي!!!!.

وكأن تيارا كهربائيا سرى في جسدي!!!.. نهضت لا شعوريا من مكاني غاضبا لأقول:

- هل إخافة الناس بهذه الطريقة والعبث بمشاعرهم لعبة لدى شقيقك الأحمق هذا؟!!.

قلتها وقد ندمت بعد أن تذكرت أنه مات.. لتكمل بألم:

- نعم يا دكتور.. كان شقيقي يعبث معي.. مجرد مزحة ثقيلة.. والفتاة التي حادثتني عبر تطبيق (Instagram) كانت شقيقي أيضا في واقع الأمر.. وقد قام بتقليد صوت نسائي شبيها نسبيا بصوتي!!!.

صحت بذهول:

- لقد تجاوز حدوده كثيرا!!.. يا إلهي.. أعتقد أنه كان ينتظرك أن تفتحي له الباب.. فيكشف عن نفسه ويضحك أمامك مستمتعا بما فعله بك.. لكن تأخره في ذلك أودى بحياته.

لم ترد على كلامي.. بل اغرورقت عيناها بالدموع.. فسكتنا للحظات وأنا أناولها منديلا.. ثم سألتها:

- كيف كانت طبيعة علاقتك بشقيقك؟!.

مسحت دموعها.. ثم ردت وكأن سؤالي أعجبها:

- كان شقيقي شابا سيئا أفسد والداي -سامحهما الله- تربيته.. بعد أن حصل على كل التدليل الذي قد يخطر ببالك كونه ولدهما الوحيد.. فغدا مستهترا فاشلا في دراسته.. حتى أنه انتقل لأكثر من كليّة من دون فائدة.. لقد كان الجميع يرى سوءه منذ مراهقته.. حيث كان يعذّب الحيوانات المشردة.. ويشعل النيران متعمدا في المرافق العامة.. ويتلف أملاك الناس.. هذا غيض من أشياء كثيرة ارتكبها.. وقد زاد والداي الطين بلة حين باتا يقارنان فشله الدراسي بنجاحي وتفوقي.. أي أنهما قاما بتدمير شخصيته.. ثم راحا يشكوان سوء خلقه!!.. ومقارنة الأشقاء ببعضهم من قبل الوالدين تزرع بينهم الكراهية.. وتزيد الأمور سوءا كما تعلم.. وهذا ما جعل شقيقي يكرهني ويفتعل المشاكل معي بين الحين والآخر.. لكني لم أتوقع أبدا أن يصل به الأمر إلى أن يقوم بإخراج مسرحية كاملة كهذه!!.. فقد عاد إلى البيت بدوره في تلك الليلة المشؤومة أثناء وجودي في غرفتي.. ثم ركن سيارته بمسافة بعيدة نسبيا.. ليدخل البيت ويقطع عني الكهرباء.. بل اتضح أنه هو الذي اتصل بالمطعم ليطلب الوجبة باسمي.. نعم.. هو فعل كل شيء.. ولم أشك للحظة

أن كل ما يحدث لعبة تدار منه!!!.. لاحظ أنني كنت أتواصل معه منذ أسابيع عبر تطبيق (Instagram) من دون أن أكتشف هويته الحقيقية.. لقد كان يريدني أن أشرب المقلب لكي يخيفني إلى آخر رمق ويشفي غليله.. إلا أنه لم يتوقع أبدا أن يكون ثمن مزحته الثقيلة هذه حياته نفسها.

غمغمْت باشمئزاز:

- تماما كما يفعل البعض حين يخيفون الناس تحت مسميات غبية كـ(مزحة) أو (كاميرا خفية)!!.. بالمناسبة.. كل ما فعله شقيقك من إضرام النار وممارسة العنف جزء مما نطلق عليه في علم النفس (ثالوث ماكدونالد)*.. وهذا يرجح أن شقيقك كان سيغدو مجرما على الأرجح.. رحمه الله.. عموما.. أخبريني.. ماذا حدث بعد ذلك؟!.

ردت بألم:

- حالة هستيريا أصابتني.. لكني سيطرت على أعصابي.. وتواصلت مع إحدى قريباتي الموجودة في الشاليه عبر

---

* ثالوث ماكدونالد (Macdonald Triad) مصطلح شهير أطلقه الطبيب النفسي والمؤلف (جون مارشال ماكدونالد) (John Marshall Macdonald) عام 1963 حيث ذكر أن هناك 3 صفات رئيسية لو توفرت 2 منها عند الإنسان على الأقل.. فعلى الأرجح سيغدو قاتلا أو مجرما.. والصفات هي: التعدي على الحيوانات.. وتعمد إشعال النار في الأشياء.. وكثرة التبول اللاإرادي.

أحد تطبيقات التواصل الاجتماعي.. لحسن الحظ أنها رأت رسالتي سريعا.. وأبلغت والدي الذي هرع إلى البيت برفقة خالي.. سيطول الكلام بالطبع لو أخبرتك عن ردة فعل بقية أفراد العائلة.. وتحقيقات الشرطة فيما بعد.. الأمر متروك لخيالك!!.

سكتنا طويلا.. ثم قلت بتعاطف:

- لقد مررت بليلة سوداء بكل المقاييس.. وما تلا ذلك ربما كان أسوأ عليك وعلى أفراد عائلتك!!!.

قالت وهي تعض شفتيها:

- لقد كانت والدتي تدعو دوما أن يبعد الله رفقاء السوء عن شقيقي.. من دون أن تنتبه لحقيقة واضحة.. أن شقيقي نفسه رفيق سوء!!.

قلت بأسف:

- مشكلة كبيرة حين ينجبون الأطفال وهم لا يملكون الوقت أصلا لتربيتهم.. كما أن التدليل الزائد في الطفولة يعني عدم إعطاء الطفل فرصة لتنمية اختياراته أو حتى اكتشاف قدراته.. فقبل أن يختار.. يكون ولي أمره قد اختار له.. وقبل أن يعيش خبرة مواجهة موقف ما.. يكون

ولي الأمر قد تدخل لإنهاء الموقف لصالحه.. وعندما يكبر هذا الطفل.. يظل طفلا في الداخل.. إذ يعتمد على الكبار في كل شيء.. ويصبح بلا مرجع.. وبلا خبرات سابقة.. ويرتكب أخطاء عديدة.. إنني واثق أن شقيقك نتاج تربية والديك السيئة!!.. للأسف فإن أكثر ما يجيده الأبوان مع أبنائهم في مجتمعاتنا لا يتجاوز سياسة العصا والجزرة*.. وهذا لا يكفي!!.

سكتت وهي تومئ برأسها موافقة على كلامي من دون أن أعرف إن كانت قد فهمت ما أريد قوله.. ثم غمغمت متسائلة:

- ما زلت عاجزة عن فهم سبب تصرف شقيقي بهذه الطريقة.. هل يعقل أن يتلذذ بكل هذا الرعب الذي عشته؟!.. ربما علي ألا أخشى شر الآخرين من الآن فصاعدا.. إنما علي أن أخشى طيبتي الزائدة.. أنا التي لم أظن يوما أن شقيقي الوحيد قد يكرهني!!.. فلا يمكن أن يفعل بك كل هذا شخص يحبك!!.

---

* العصا والجزرة (The carrot or the stick) مصطلح يشير إلى سياسة الثواب والعقاب لإجبار الفرد على اتخاذ سلوك معين.. ويقال أن أصل المصطلح يعود إلى المزارعين الأوروبيين الذين كانوا يربطون الجزرة في حبل مربوط بدوره بالعصا.. لتتدلى الجزرة أمام الحمار أو البغل.. مما يجعله يستمر في السير ظنا منه أنه سيصل إليها.. أو يضرب بالعصا على مؤخرته لو امتنع عن التقدم للأمام.. وقد أصبح هذا المصطلح يستخدم بكثرة في السياسة مؤخرا.

نظرت إليها بشفقة.. ثم قلت:

- إخافة الناس تمنح الطرف الآخر شعورا بالقوة والفوقية والرضا الداخلي.. وقد تكون مرتبطة بالحسد أو الانتقام.. فنحن نحب أن نرى من نكرههم في مأزق.. هناك لفظة انجليزية -لا أتذكرها الآن- تتعلق بالفرح والاستمتاع حين نرى آخرين في مشكلة أو ورطة معينة*.

ردت بحزن:

- ربما.. أتذكر أن شقيقي -رحمه الله- كان يحاول التحكم بي باستمرار.. فلا يسمح لي بالخروج.. ويحاول التفتيش في هاتفي بين الحين والآخر.. لكني لم أكن أسمح له بالتدخل في حياتي.. خاصة وأن والدي ظل يقف بجانبي دوما.

قلت مفكرا:

- ذكرتِ أن شقيقك تواصل معك عبر وسائل التواصل الاجتماعي قبل تلك الليلة وطوال أسابيع على أنه فتاة.. يبدو أنه كان يعد العدة لخداعك بوسيلة أو بأخرى.. أو ربما استخدم حسابه على أنه أنثى كي يتطفل على

---

* الكلمة (Schadenfreude) وهي في الواقع ألمانية الأصل مشتقة من كلمة (Schaden) وتعني (التدمير) وكلمة (Freude) وتعني (المتعة).

حسابات الفتيات.. ثم خطرت له فكرة ذلك المقلب في نفس الليلة حين أُتلف هاتفك وعدت إلى البيت.. وقد كلفه هذا حياته للأسف.. لا أعرف ما يقول القانون عندنا حول أمر كهذا.. لكن تخويف الآخرين بهذه الطريقة أمر مجرّم في بعض الدول*.. إنه بمثابة القسوة على الضعيف.. والقسوة على الضعيف -بوجهة نظري- ضعف من نوع آخر!!.

ابتسمت من دون أن ترد.. فسألتها عن حالها الآن.. لتنظر إلي بعمق.. وتقول:

- لقد تجاوزَت عائلتي الأزمة.. لكن الأمر يختلف بالنسبة لي.. أنا التي عشت الأحداث كاملة.. عشت لحظات الرعب والشعور بدنو أجلي.. ثم قتلت شقيقي بنفسي.. إنني أمر بأزمة نفسية حادة.. فأجد صعوبة شديدة في النوم.. وأبكي كثيرا.. وأشعر بفراغ روحي غريب.. وبعدم الأمان.. كما تنتابني الكوابيس باستمرار جراء ما حدث!!.. أعرف أن

---

* حقيقة.. ويطلق على تخويف أو إرهاب الناس مصطلح (Intimidation).. ويعد جريمة في بعض الدول.. حتى لو لم يلحق أي ضرر جسدي بالضحية.. كما أن ممارسة العنصرية المتعلقة باللون أو الدين أو الجنس تقع ضمن نطاق هذا المصطلح.

الأيام الصعبة هذه ستمر مهما طالت.. لكن استقراري النفسي لن يعود أبدا كما كان!!.. فذاكرتك.. كارثتك!!.

تنهدت.. لأقول:

- إنك مصابة بما نطلق عليه (اضطراب ما بعد الصدمة)*.. هذا واضح.. وتحتاجين إلى عامل الزمن.. مع بعض الأدوية.. ثم عليك بممارسة الرياضة وتغيير روتين حياتك.. وأرجوك أن تخرجي قليلا وتستمتعي بوقتك.. إنه شرخ في حياتك لا يمكن نسيانه.. لكن يمكنك التعايش معه.. ولا تلومي نفسك أبدا.. فأي شخص في مكانك كان سيفعل الشيء ذاته.. بل أنني أراك أشجع من الكثيرين.. أقولها بصدق.. لا أعرف كيف سأتصرف أنا نفسي لو عشت موقفا كهذا.

هزت رأسها متفهمة.. وانتظرت مني لأكتب لها وصفة تحتوي

---

* (اضطراب ما بعد الصدمة) ويرمز له (PTSD) اختصارا لـ (Post-Traumatic Stress Disorder).. وهو ما يصاب به الإنسان بعد المرور بمواقف صادمة أو مرعبة.. كخوض الحرب أو التعنيف في الطفولة أو الاعتداء الجنسي أو التهديد بالسلاح.. إلخ.. فتبدأ بالتأثير السلبي على حياته.. ويعاني المصاب بـ(اضطراب ما بعد الصدمة) عادة من إحساس قوي بالخطر.. مما يجعله يشعر بالتوتر والخوف الدائم.. حتى في الحالات الآمنة.. مع تكرار الحادثة السيئة في ذهنه من دون توقف.. سواء في يقظته.. أو من خلال الكوابيس.. ومن الممكن أن يصاب الإنسان بهذا الاضطراب في أي عمر.. حيث يظهر كردة فعل على التغيرات الكيميائية التي حدثت في الدماغ بعد التعرض لصدمة.

على بعض الأقراص المهدئة.. لتأخذها مني وهي تشكرني كثيرا.. أما أنا.. فقد ظلت القصة حاضرة في غرفتي حتى بعد رحيل الفتاة.. وقد شعرت بالألم من أجلها.. بعد أن جعلها شقيقها تعيش ليلة سوداء.. وأحداث من التشابه.. والتزامن!!.

خوف.. لا يتوقف!!

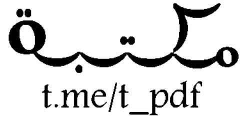
تحكيها: (رهف)

العمر: 28 سنة

لقد مررت بالكثير.. والكثير جدا من الحالات النادرة والقصص الغريبة خلال مسيرتي المهنية في مستشفى الطب النفسي.. حتى بت أعتقد أحيانا أنه من النادر أن يثير أي شيء استغرابي.. ورغم ذلك.. أكتشف دوما أنني مخطئ.. فما زالت بعض القصص تفاجئني بالفعل.. وما زلت أيضا أشعر بالضيق حين أرى ملامح الخوف والتوتر على وجوه المرضى.. فلا أعرف متى سأصاب بـ(المناعة النفسية) الشبيهة بتلك التي يشعر بها الطبيب الباطني الذي اعتاد رؤية دماء وجروح مرضاه.

هذا ما خطر ببالي أثناء جلوسي في مكتبي فترة العصر من ذلك اليوم.. بعد أن بدأ المستشفى يخلو من حالة الزحام التي يشهدها كل صباح.. حين سمعت فجأة طرقات متوترة على الباب جعلتني أعتدل في مكاني.. و.. قبل أن أسمح للزائر بالدخول.. فُتِح الباب.. لأجد أمامي فتاة ترتجف بطريقة غريبة وكأنها تكاد تموت من البرد!!!.. لكن.. ملامحها والعرق المحتشد على جبينها يؤكدان أن لا علاقة للبرد بالموضوع.. إنها خائفة.. بل تشعر بالهلع من أمر ما.

طلبت منها بشيء من التعاطف أن تجلس.. فجلست بسرعة وهي تقول بأسنان تصطك ذعرا:



- دكتور.. أنقذني أرجوك.. هل ترى كيف أبدو الآن؟!.. تخيل أن هذا حالي منذ أكثر من يومين.. لم أكن أعرف لمن ألجأ.. فنصحني شقيقي باللجوء إلى مستشفى الطب النفسي.. لم أنتظر لحظة واحدة بعد ذلك.. إذ طلبت منه أن يأخذني إلى هنا بسرعة.. إنه ينتظر في الخارج كوني أشعر براحة أكبر حين أتحدث مع أي طبيب لوحدي.. حتى الطبيب الباطني.

لم أقل شيئا.. بل طلبت منها أن تهدأ قليلا.. ورحت أتأملها.. إنها في منتصف العشرينيات من العمر.. حنطاوية البشرة.. ممتلئة الجسد قليلا.. ترتدي العباءة الخليجية على كتفيها.. وقد ربطت شعرها إلى الخلف وثبتته بمشبك بطريقة مستعجلة كما بدا لي.. مما يوحي أنها جاءت إلى هنا مسرعة بالفعل.. ولم يفتني أن ألحظ جمالها رغم إهمالها الشديد لمظهرها.. ثم:

- هل لك أن تخبريني بالمشكلة؟!.

قلتها وأنا أنهض لأفتح باب ثلاجتي.. وآتي لها بزجاجة ماء.. فأخذتها وفتحتها على عجالة.. ورشفت منها قليلا.. لتضعها على المنضدة الصغيرة أمامها.. في حين أشرت لها أن تتحدث.. لتقول بسرعة:

- أنا خائفة جدا.. كيف أتخلص من الخوف الذي يلازمني كل لحظة يا دكتور؟!.

أجبتها متنهدا:

- يجب أن أفهم المشكلة أولا.. ما سبب خوفك بالضبط؟!.

ردت بأنفاس متلاحقة:

- الأمر معقد.. ويحتاج شرحا طويلا.

كنت صبورا وأنا أنظر إلى عينيها الجميلتين وأقول بهدوء:

- لماذا لا تخبريني بالقصة من البداية؟!.

تنهدت طويلا وهي تغمض عينيها محاولة السيطرة على أعصابها.. لكن يبدو أن كل هذا لم يكن كافيا لتهدأ.. إذ قالت بذات الصوت والجسد المرتجف:

- حسنا.. إنني فتاة من فئة غير محددي الجنسية.

نظرت إلي مباشرة.. وكأنها تريد أن ترى ردة فعلي.. لكني ابتسمت منتظرا منها أن تكمل.. لتقول:

- إنني أخبرك بهذا كي تعرف الدافع وراء قبولي بالزواج من ذلك الرجل الذي يكبرني بما فيه الكفاية ليكون بعمر والدي.. بل ولديه أيضا أولاد من زوجته الأولى..

بعضهم أكبر مني سنا!!.. لقد رآني في مقر عملي ذات يوم وخطفت قلبه كما قال بنفسه.. والواقع أن جنسيته الكويتية كانت بمثابة صك الغفران لأي أمور أخرى لا تعجبني فيه.. فأنا في الـ 28 من العمر.. وكنت قد تعبت من الانتظار والقلق على مستقبلي.. مع حاجتي إلى المادة وخوفي الدائم من المستقبل المجهول كحال كل شخص من فئة غير محددي الجنسية.. خاصة وأنا أرى كيف يعاني أشقائي يوميا في حياتهم.. لم أكن أريد أن أكون مثلهم.. كنت أبحث عن الاستقرار.. وأنتظر دوما أن يطرق بابي شاب كويتي أو خليجي الجنسية.. لكن أحدا منهم لم يكن يرغب بالارتباط.. كل ما أرادوه العبث فقط.. وهذا ما جعلني حذرة جدا في أي علاقة.. إلى أن تقدم ذلك الرجل لخطبتي رسميا.

سألتها:

- ماذا عن زوجته؟!.

ردت باهتمام:

- إنها كبيرة في السن.. تصغر زوجي بسنتين فحسب.. وبدينة جدا.. كما أنها مصابة بأمراض كثيرة.. منها داء

السكر.. في حين ما زال زوجي يشعر بشبابه على حد قوله.. كونه يحافظ كثيرا على صحته ولياقته.. ورغم أن في تصرفه هذا شيئا من النذالة.. إلا أنني وافقت بعد أن اشترطت عليه الإنجاب.. كي لا يخضع لأي ضغوط لاحقا وينهي الزواج.. فالطفل سيربطه بي بشكل أو بآخر.. وسيكون حينها الحصول على الجنسية الكويتية أسهل.

قلت بعدم اقتناع:

- حتى لو أنجبت منه.. يستطيع إنهاء زواجكما متى شاء مع عدم منحك أي نفقة.. حينها ستكونين أنت والطفل في وضع كارثي.. لأن زوجك يعلم أنك حتى لو قمت بمقاضاته فيما بعد.. فإن الأمور لن تسير بسهولة.. قضايا كتلك قد تستمر لسنوات.

ردت بعصبية شديدة وهي تضغط على أسنانها:

- أعرف كل هذه الجوانب.. إنها حياتي أنا.. هل نسيت؟!.. لقد أخبرني والدي وأشقائي بذلك.. لكني كنت مصرة على الزواج.. خاصة وأنني أدرك مدى جمالي.. وأعرف كيف سأضع ذلك الرجل خاتما في أُصبعي كما يقال دوما.

ابتلعت عصبيتها الشديدة ولم أرد.. فليس على المريض حرج كما تعلمون.. لتكمل:

- لقد تنازلت عن كل شيء في سبيل الزواج.. تنازلت حتى عن السكن الخاص حين أخبرني زوجي أنني سأعيش في الدور الثاني من بيته.. كونه منفصلا تماما عن الدور السفلي الذي تعيش فيه زوجته.. والتي لن أضطر أبدا إلى الاحتكاك بها.. فهناك الباب المؤدي إلى الدور السفلي.. والذي سيظل مغلقا.. وهناك أيضا الباب المؤدي إلى الخارج.. هو الذي سأستخدمه دوما.

سألتها بهدوء:

- كيف تلقت زوجته خبر زواجكما؟!.. وماذا عن أبنائه؟!.. ألم يعترضوا؟!.

قالت وهي تهز ساقيها بعنف كناية عن التوتر:

- إنه لا يخشى مواجهة زوجته أبدا.. فقد توسلَت إليه بالطبع.. وبكت كثيرا.. لكنه كان صارما حازما معها.. وطلب منها أن تتقبل الوضع لأنه لن يغير رأيه.. أما أولاده.. فهناك من اعترض في البداية.. لكنهم يعرفون عناد والدهم وقوة شخصيته.. لذا تجنبوا أي مواجهة معه..

خاصة وأن كل منهم يعيش حياته المستقلة بعد زواجه.. بل وعلمت فيما بعد أن جميع أبنائه اختاروا الاستقلال بحياتهم وتكبد دفع إيجار السكن.. على أن يسكنوا مجانا مع والدهم بسبب قوة شخصيته.. وقد لمست هذا فيه بالفعل.. إلا أنه كان يتحول إلى طفل صغير حين يكون معي.. هكذا هم الرجال دوما.. يقهرهم الجمال.

ابتسمت من دون قصد.. ليتها تعلم كم هي صادقة عبارتها.. لكنها لم تنتبه لابتسامتي.. فأكملَت:

- تم عقد قراننا في بيت والدي.. وانتقلت في نفس اليوم لأعيش مع زوجي.. مُدركة أنني لا يمكن أن أحب هذا الرجل يوما.. و.. كما كنت أتوقع.. فقد ملكت قلبه في الأيام الأولى من زواجنا.. حتى أنه لم يكن يخرج إطلاقا.. ولم أره ينزل إلى الدور السفلي ليقضي بعض الوقت مع زوجته.. بل أهملها تماما.. فكان أولادها يزورونها باستمرار ليخففوا عنها صدمة زواج والدهم بعد هذه العِشرة الطويلة.

سألتها بحذر:

- هل التقيت بأولاده؟!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول بطريقتها العصبية:

- إطلاقا.. لم ألتق بزوجته أو أولاده.. إذ كان زوجي يمنعهم من الصعود إلي.. وطلب منهم أن يتركوني لحالي.. لكن.. طبيعة الأنثى يا دكتور.. طبيعة الأنثى هي المشكلة!!!.

نظرت إليها مستفهما.. لتستطرد:

- لم أكن أرغب أن يشاركني أحد في زوجي رغم أنني لم أحبه أصلا.. فكنت أشعر بشيء من الغيرة تجاه زوجته رغم أنني شاهدت صورا لها وعلمت أنها لا يمكن أن تنافسني.. لكنها لم ترني من قبل.. وأردتها أن تعرف لماذا اختارني زوجها وفضلني عليها!!.. أردت التباهي بجمالي وشبابي أمامها.. كما كان الفضول يقتلني لألتقي بها وجها لوجه.. دعك من شعوري بالملل.. خاصة بعد أن تركت عملي بناء على أوامر زوجي.. ولم يعد هناك ما أفعله.. وبعد أن بدأ زوجي يعود لحياته الطبيعية ويخرج معظم الوقت مع أصدقائه.. في حين يأمرني بالبقاء في البيت.. إنه من الطراز القديم.. فلا يسمح لي بزيارة صديقاتي.. بل بزيارة والديّ فقط.. المهم أنني قررت النزول إلى الدور السفلي لألتقي بزوجته.. ولأول مرة منذ زواجنا الذي مضى عليه شهور قليلة!!.

حسنا.. يبدو أن القصة ستصل إلى أهم أحداثها الآن.. هكذا قلت لنفسي وأنا أستمع إليها مكملة:

- كان الوقت متأخرا نسبيا ليلتها.. زوجي يقضي سهرته مع أصدقائه كما بات يفعل مؤخرا.. لم أكن أفهم سبب الخوف والتوتر اللذين سيطرا علي.. إلا أنني قاومت مشاعري.. وذهبت لأجد الباب الذي يفصل بين الدورين مفتوحا لحسن الحظ.. ربما نسي زوجي أن يقفله.. هكذا قلت لنفسي.. فدفعت الباب وأنا أتنحنح.. لا يوجد أحد.. وأنوار الصالة مطفأة.. هل نامت زوجته؟!.. إنها ليست عجوزا إلى الحد الذي يجعلها تنام مبكرا كما نسمع دوما عن العجائز.. ظللت ألتفت باحثة عن غرفة نومها.. أبواب الغرف كلها مفتوحة.. سوى تلك الغرفة!!.. لا شك أنها غرفة النوم.. ولا شك أيضا أن زوجته في الداخل.. طرقت الباب بهدوء.. فسمعتها تقول بشيء من الألم: ((منذ متى تطرق الباب؟!)).. يبدو أنها تظن الطارق زوجي.. لكني تنحنحت وأخبرتها بهويتي.. ليسود المكان صمت طويل جعلني أشعر بحماقة تصرفي.. وأتذكر لحظتها فقط.. أن غريزتي الأنثوية أنستني حرصي الشديد على عدم افتعال

أي مشاكل في زواجي هذا كي أحصل على ما أبتغيه.. و.. توقفت أفكاري حين فتح باب الغرفة فجأة.. لأرى زوجته أمامي أخيرا!!.

سكتت قليلا وهي تجرع من زجاجة الماء.. ثم قالت مسترسلة:

- لم تكن تختلف كثيرا عن الصور.. سوى أنها أسمن بكثير.. يبدو أن وزنها بازدياد.. والصور التي شاهدتها لها كانت قديمة نسبيا ربما.. لقد بدت وكأنها فرس النهر.. حتى شعرت للحظة وكأنها ستنقض علي وتحطم عظامي بوزنها.. دعك من الغضب الذي سيطر على ملامحها.. بالطبع.. إنها تراني سارقة لزوجها الذي عاشت معه معظم سنوات عمرها.. لكني تجاوزت نظرات غضبها.. وقررت أن أتصرف بحكمة بعد إدراكي المتأخر لغباء مغامرتي هذه.. فأخبرتها بابتسامة حزينة مصطنعة أنني أتفهم غضبها.. لكن ظروفي القاسية أجبرتني على الزواج.. ومن ذلك الكلام الذي حاولت خلاله كسب ودها.

عقدت حاجبي كناية عن الاهتمام.. ثم سألتها:

- كيف كانت ردة فعلها تجاه كلامك؟!.

ردت بحسرة:

- كانت هذه غلطة حياتي يا دكتور.. إذ منحت زوجته فرصة ذهبية لتفريغ غضبها.. إنني عدوتها اللدود.. ولا يمكن أن تسامحني أو تتفهم ظروفي.. فصرخت بي.. وراحت تشتمني بطريقة هستيرية قذرة وبكلمات خارجة أخجل من ذكرها.. حتى أنني تراجعت إلى الخلف مصدومة.. لكنها ظلت تقترب مني وتصرخ وتشتم من دون توقف.. في حين أدرت لها ظهري وأنا أصعد إلى الدور العلوي حيث أسكن.. لكنها تبعتني وكأنها وجدت العذر أخيرا لتفعل كل ما ترغب به.. فحاولت إغلاق الباب الفاصل بين الدورين.. إلا أنها لم تسمح لي بذلك.. بل دفعت الباب بكل ثقلها.. وصفعتني حتى ارتجت كل أسناني.. حسنا.. هنا فقدت أعصابي.. ودفعتها بكل قوتي.. لتسقط من على الدرج!!.

قلت بذعر:

- هل ماتت؟!.

ردت بحنق:

- لا أحد يموت جراء سقوطه من على الدرج.. هذا يحدث في السينما فقط.. لكن ما حدث كان بالغ السوء أيضا..

فقد تعرضَّت لرضوض كثيرة.. ويبدو أنها وقعت بوزنها الثقيل على ذراعها.. فكسرته وباتت عاجزة عن النهوض.

قلت وأنا أنظر إليها بعين ضيقة:

- وهل أنقذتِها؟!.

انفجرَت باكية وهي تقول:

- ليتني فعلت.. بل تركتها مُلقاة على الدرج.. وأغلقت الباب.. كنت قد قررت إنكار كل شيء لو ادّعت أنني تطفلت عليها وتعديت على خصوصيتها.. فالمنطق يقول أنها هي التي سئمت ابتعاد زوجها عنها.. وجاءت لتتشاجر معي كوني الطرف الدخيل على حياتها الزوجية.. وربما سقطت من على الدرج.. خاصة مع وزنها الثقيل.. كانت هذه الكذبة التي أعددتها في عقلي.

نظرتُ إليها بأسف غير مقصود.. فقالت بعصبيتها:

- لا تلعب دور المصلح الاجتماعي والرجل البريء الذي لا يخطئ.. إنني أشكو لك مشكلتي.. فساعدني.

إنها محقة!!.. ليس من المفترض أن أصدر أحكامي على الناس.. لكنني بشر في النهاية.. وقد خرجت نظراتي من دون قصد..

فتنحنحت وسألتها عما حدث بعد ذلك.. لترد بعد أن تمخطت بمنديل أخذته من مكتبي:

- لقد تركتها تئن ألما على درجات السلم وهي تصرخ طلبا للنجدة.. لم تكن قادرة على النهوض بسبب وزنها الزائد.. أو ربما بسبب إصاباتها.. فدخلت غرفتي وأغلقت الباب.. ثم قمت بتشغيل جهاز التلفاز.. بهذه الطريقة أستطيع الادّعاء أنني لم أسمع صراخها.. أعرف أنه تصرف حقير.. لكني كنت أخشى بشدة أن يقوم أحدهم بتوجيه اللوم لي.. خاصة مع وضعي الاجتماعي الذي لم يعد يخفى عليك.

أخذَت نفسا عميقا لتقلل توترها.. ثم أكملت:

- لقد نمت من دون أن أشعر بنفسي.. لأفاجأ بزوجي صباح اليوم التالي وهو يخبرني أنه وصل متأخرا بعد سهرة قضاها مع أصدقائه.. ورأى زوجته ملقاة على الدرج.. وقد أخبرني أن حالة زوجته سيئة للغاية.. فقد سقطت بكل ثقلها على يدها كما علمنا.. وتسبب ذلك بتهتّك العظام والأوعية الدموية.. و.. ومع إصابتها بداء السكر.. اضطر الأطباء في النهاية إلى بتر يدها!!!.

حاولتُ تمالك نفسي قدر الإمكان وأنا أنظر إلى الفتاة.. لتقول:

- كان هذا آخر ما توقعته.. والأغرب أن زوجته لم تتهمني بشيء!!!.. بل ادّعت أنها كانت تريد زيارتي لكسب ودّي بعد أن تقبّلَت الأمر الواقع.. فوقعَت من على الدرج بالخطأ.. وهذا الاعتراف الكاذب سبب لي ارتباكا هائلا.. وجعلني أتساءل عن هذا النبل المفاجئ في أخلاقها.. أو ربما لعلمها أن كلامها في النهاية سيصطدم بكلامي؟!.. فهي لن تتمكن من إثبات أي شيء ضدي!!.

لا بد هنا من التذكير أن (رهف) كانت ترتجف طوال الوقت.. وأن كلماتها ظلت تخرج منها بطريقة متوترة مزعجة.. فكنت أحاول بصبر أن أستمع إليها وأفهم كل ما تريد قوله.. المهم أنني قلت بغموض:

- أو أنها كانت تخطط لشيء أكبر.. الانتقام بطريقة مضمونة!!.

نظرت إلي بدهشة.. ثم سألتني:

- كيف عرفت؟!.

قلت مغمغما:

- مجرد حدس.

ردت بحنق من دون أن تعلّق على كلامي:

- المشكلة أنني شعرت بتأنيب الضمير آنذاك.. وطلبت من زوجي أن يسمح لي بزيارتها في غرفتها بعد الحادثة بأسابيع قليلة.. ليسمح لي بذلك مثنيا على حسن خلقي.. وهنا بدأت الكارثة!!.

نظرتُ إليها مستفهما.. لتقول:

- نزلت إلى الدور السفلي مع زوجي.. وما إن رأيتها بيدها المبتورة التي غطتها بقطعة قماش.. حتى أصبت بمشاعر غريبة لم أمر بها في حياتي.. هل تعرف الهلع يا دكتور؟!.. لا أتحدث عن الخوف.. بل الهلع.. الرعب.. مع عوارض جسدية غريبة.. شعرت بالدوار الشديد.. وارتجاف جسدي بأكمله.. وتقلص معدتي.. العرق الغزير والشديد الذي نبت من كل ذرات جسدي.. كنت أرغب بشدة في الهرب راكضة إلى غرفتي!!.

قلت مبتسما:

- الأمر بسيط مهما سبب لك من مخاوف.. لقد أصبت بالـ(فوبيا) تجاه الأشخاص مبتوري الأطراف*.. أي من لديهم يد أو رجل مبتورة.

---

* فوبيا حقيقية بالطبع.. ويطلق عليها باللغة الإنجليزية (Apotemnophobia).

قامت بإعادة ربط وترتيب شعرها بسرعة.. إنها علامة شهيرة للفتيات توحي أن الأمر جدّي للغاية.. لتسألني بصوت مرتفع:

- أعرف ذلك.. لكن كيف لم أكتشف الأمر سوى مؤخرا؟!.

قلت ببساطة:

- من الممكن جدا أنك أصبت بالـ(فوبيا) في حينها.. بسبب الشعور بالذنب مثلا.. هذه الأشياء تحدث.. ليس بالضرورة أن تكون للـ(فوبيا) جذور قديمة.

أغمضت عينيها وهي تزفر.. لتكمل:

- لم يكن الأمر سهلا أبدا.. فقد أُغمي عليّ فعليا.. وقام زوجي بإنعاشي بسرعة.. لأستعيد وعيي وقد تذكرت أين أنا.. فالتفتُّ لأجد زوجته وهي تنظر إلي مستغربة.. عندها هرعت راكضة إلى الدور العلوي.. حيث شرحت فيما بعد الأمر بأكمله لزوجي.. والرعب الذي شعرت به.. وأدركت أن علي ألا أرى زوجته أبدا.. بل وحاولت ممارسة سحر الأنثى عليه كي أقنعه بالخروج من هذا المكان إلى شقة أخرى.. لكنه رفض تماما وأخبرني أنه من الحماقة أن يترك البيت بأكمله لزوجته.. أي أن علي التأقلم فحسب!!.

سألتها فجأة:

- ولماذا يبدو عليك كل هذا الخوف الآن؟!.. إنك ترتجفين منذ دخولك مكتبي!!.

ردت بذعر:

- لأن القصة لم تنتهِ بعد.. فبعد كل ما حدث.. حاولت تجاهل وجود زوجته في الدور السفلي.. وحاولت كذلك أن أشغل وقت فراغي.. فرحت أطلب من صديقاتي أن يزرنني.. وأحيانا أخرى أزور والديّ.. حتى مرت عدة شهور.. إلى أن جاء ذلك اليوم.. حين طرق أحدهم الباب.. لأذهب وأفتحه مباشرة ظنا مني أنه زوجي وقد نسي أن يأخذ معه المفتاح قبل خروجه كما يحدث بين الحين والآخر.. لكني وجدت زوجته تقف أمامي بابتسامة عريضة!!.

قالتها وهي تضع يدها على قلبها وكأنها ترجوه أن يهدأ.. ثم أكملت:

- كان هذا آخر ما توقعته.. بالطبع لم أحتمل رؤيتها.. إذ تراجعتُ مذعورة.. ومررتُ بنفس حالة الهلع التي مررت بها حين رأيتها أول مرة بيدها المبتورة.. لكنها راحت تتحدث بكلمات سريعة.. وتخبرني أنها لا تكرهني أبدا رغم كل ما حدث.. ففي النهاية هذا حق زوجها الشرعي.. وسوف تحترم اختياره.. إلا أنني طلبت منها

الرحيل ودفعتها باشمئزاز والعرق يتصبب مني فجأة.. حتى كدت أن أفقد وعيي!!.. ثم أغلقت الباب بوجهها وجلست على الأرض مستندة إلى الجدار.. أحاول التنفس بهدوء لأسيطر على أعصابي.

راحت تتنفس بسرعة وكأنها تستذكر تلك اللحظات.. فلوحتُ لها بيدي أن تهدأ قليلا.. ثم:

- لم أرها منذ ذلك الحين.. لتمر الأيام التالية بهدوء نسبي.. إلى أن حدثت الكارثة منذ يومين فحسب.. حين قامت زوجته اللعينة بأحقر ما قد يخطر ببالك!!.. فقد طرقت الباب أثناء غياب زوجي.. لكني هذه المرة كنت حذرة.. إذ سألت عن هوية الزائر بقلق.. لتجيب زوجته من خلف الباب.. وتقول ما جعلني أعجز عن النوم!!.. حتى كدت أفقد عقلي!!.. لأقرر في النهاية أن أزورك!!.

وضعتْ يدها على قلبها للمرة الثانية.. ثم أكملت وهي تبتلع ريقها:

- لقد نسيت أن أخبرك أنني حامل في الشهر الرابع.. وقد أخبرتني زوجته من خلف الباب -وبصوت مرتفع- أنها اتفقت مع خادمتي على أن تضع في طعامي يوميا دواء لم أسمع به من قبل.. أعتقد أن اسمه (ثاليدومايد)!!.

نهضتُ من الكرسي لا شعوريا وأنا أقول مصدوما:

- يا إلهي.. هذا الدواء الملعون ظهر كعلاج من حالة الغثيان التي تصيب الحوامل عادة.. ولكن الشركة المنتجة كانت مخطئة.. فقد ولد بسببه جيل كامل من الأطفال بلا أقدام أو أيدي*!!.

قالت بصوت مرتعش وعيناها امتلأتا بالدموع فجأة:

- هل عرفت الآن مشكلتي يا دكتور؟!.. إنني أحمل في أحشائي طفلا أبتر.. أي أنني أعاني الـ(فوبيا) في كل لحظة من حياتي بسبب انتقام زوجته الحقيرة!!!.. لهذا يبدو علي الذعر والتوتر.. لقد أُغمي علي أكثر من مرة في اليومين الماضيين.. ولا فائدة من إخبار زوجي بما حدث.. لأن زوجته ستنكر كل شيء على الأرجح.. لقد كانت خادمتي اللعينة تضع لي جرعات من هذا العقار يوميا في كل وجباتي.. كنت أشعر أن طعم الأكل تغير قليلا.. لكني عزوت ذلك إلى الحمل.. فأنا لم أحمل من قبل.

* حقيقة للأسف.. فعقار الـ(ثاليدومايد) (Thalidomide) سبّب تشوهات خلقية للكثير من المواليد في خمسينيات ومطلع ستينيات القرن الماضي.. حيث ولدوا بلا أيدي أو أقدام.. وفي بعض الحالات بلا أذنين.. مع تشوهات أخرى متنوعة.. وقد وصل عدد الأطفال المولودين بتشوهات بسبب عقار الـ(ثاليدومايد) إلى 12000 طفل تقريبا في 46 دولة.

كنتُ أتنفس بصعوبة وأنا أتخيل الأمر.. إنه انتقام خبيث جدا.. وحقير أيضا.. فما ذنب الطفل الذي سيولد؟!.. لكن.. مهلا.. سألتها بسرعة:

- هل قمتِ بفحص الجنين؟!.. ثم ماذا عن الخادمة؟!.. ماذا حدث لها؟!.

قالت باكية:

- الجنين مشوّه بالفعل كما اتضح من الفحوصات.. سيكون بلا يدين.. لقد علمت بذلك أثناء مراجعتي للطبيب.. أما الخادمة.. فقد هربت من البيت بعد أن ساعدتها زوجته واشترت لها تذكرة ومنحتها مبلغا كبيرا من المال يعادل راتبها لعامين كاملين.. كما طلبَت من الخادمة أن تترك رسالة نصية لزوجي تبلغه فيها أنها اضطرت للعودة إلى بلادها لأن والدتها مريضة.. وأنها كانت تخشى أن تخبره فيرفض رحيلها بسبب حاجتنا الشديدة لها في هذا الوقت.. خاصة مع فترة الحمل.. وقد صدّق زوجي كلامها!!.

سألتها:

- وأين زوجك من كل ما حدث لك؟!.. ألم يلحظ إغماءك المتكرر وسوء حالتك النفسية؟!.

ردت بحنق:

- يظن أن كل ما يحدث نتيجة الحمل فحسب.. هذا ما قلته له على الأقل.

قلتُ ببطء:

- لا يمكن أن تكون زوجته بهذا الدهاء.. فخطة كهذه تحتاج ثقافة طبية عالية.. لا شك أن أحد أبنائها أو أقاربها خطط لها وساعدها على الانتقام منك.. خاصة حين علموا بموضوع الـ(فوبيا) التي تولدت لديك.

لم ترد على كلامي.. بل عضت شفتيها قهرا.. كدت أسألها كيف حصلت الزوجة على العقار.. ثم تذكرت أنه يستخدم في زمننا هذا لأغراض أخرى.. كعلاج لبعض أنواع السرطان والجذام*.. أي أن الدواء متاح.. و.. سألتني (رهف) بتوسل:

- ماذا يتوجب علي أن أفعل؟!.

قلت محاولا دراسة المشكلة:

- الجنين موجود في أحشائك.. أي أنك ستعيشين الـ(فوبيا) حتى بعد ولادته.. دعك من مشكلة الجنين نفسه.. والإعاقة الجسدية الدائمة التي سيولد بها.. عموما.. الخيار المتاح

---

* حقيقة

أمامك هو الإجهاض.. أعرف الموانع الأخلاقية والدينية.. لذا فأنا أترك الأمر بيدك.. لكن المستشفيات هنا لا تسمح بالإجهاض بالمناسبة*.. أو.. تستطيعين تناول بعض المهدئات.. لكني لا أعرف جدوى ذلك.. فحالتك نادرة بحق.. وتسبب تحديا حقيقيا لأي طبيب نفسي في العالم.. ماذا تختارين؟!.

أجابت باكية:

- لقد أخبرني شقيقي أنه يُسمح للأشخاص من فئة غير محددي الجنسية بالسفر إلى (تايلاند).. وهناك أستطيع إجراء عملية الإجهاض.. أعلم أنه توجد طرق أخرى للإجهاض.. كتناول بعض الأقراص مثلا.. لكني أخشى تبعاتها.. فنتائجها غير مضمونة.. لذا سأسافر مع شقيقي.. وعلي أن أقنع زوجي كي يسمح لي بالسفر.. آمل أن أتمكن من ذلك.. سأتصل به من هناك لأخبره أنني تعرضت لحادث تسبب بموت الجنين.. فلا أظن أنه سيسمح لي بالإجهاض لو علم بالإعاقة التي سيولد بها الطفل.. إلا

---

* حقيقة.. علما بأن القوانين في جميع البلدان العربية لا تسمح بالإجهاض.. إلا إذا كان الجنين يسبب خطرا على حياة الأم.. وتستثنى من ذلك (تونس) التي تسمح بالإجهاض من دون سبب طبي وبناء على رغبة الأم فحسب.

أنني -ورغم كل شيء- ارتأيت زيارتك أولا علك تجد حلا لمشكلتي.. أو تنقذني على الأقل من حالة الهلع التي تمنعني حتى من النوم!!.

هززتُ رأسي متفهما.. وأخبرتها أنني سأكتب لها بعض المهدئات القوية.. فهذا الحل الوحيد المتاح حاليا إلى أن تقوم بعملية الإجهاض.. لماذا لا أنصحها بإبقاء جنينها؟!.. لأنني لا أعرف أين الصواب في الأمر.. الإبقاء على الجنين أو الإجهاض.. الأفضل أن أخبرها بخياراتها المتاحة.. على أن تقرر هي ما تريد فعله.

في النهاية.. أعطيتها وصفة طبية تحتوي على اسم مهدئ قوي.. وطلبت منها أن تطمئنني عن حالها فيما بعد.. لتومئ برأسها ببرود.. وتأخذ الوصفة خارجة من مكتبي.

كنت أعلم في قرارة نفسي أنها لن تزورني مرة أخرى.. فمن أنا لتعود وتطمئنني عن حالها؟!.. عموما.. يجب أن أعترف أنني ورغم عشقي للأنثى.. إلا أنها تخيفني حين تقرر الانتقام.. وقد رأينا هذا جليا في انتقام الزوجة التي جعلت الـ(فوبيا) تعيش في أحشاء (رهف) لحظة بلحظة.. وحوّلت ما سيكون أغلى شيء في حياتها (طفلها) إلى خوف.. خوف لا يتوقف!!.

نافــــذة!!

تحكيها: (أبرار)

العمر: 16 سنة

عزيزي القارئ.. لن أتدخل في سياق هذه القصة.. فقد طلبْت من بطلتها أن تكتبها كما عاشتها.. لعل هذا يساعد في علاجها.. فالورقة البيضاء أحيانا أفضل طبيب نفسي.. إذ تكتب عليها كل ما يطرأ بذهنك.. وتجدها آذانا مصغية تستمع إليك ولا تنكر شيئا مما تكتبه.. إلا أنني تدخلت في إعادة صياغة الأحداث وإضافة بعض المفردات على القصة.. كي تخرج لكم بأفضل صورة ممكنة.

أعرف أن هناك غرائب كثيرة في هذا العالم.. وأدرك أن هناك أسرارا نجهلها.. لكني رغم ذلك أجد أن قصة (أبرار) تفوق الغرابة نفسها.. إنها من القصص التي تقف عندها مصدوما.. فلا تعرف إن كانت الفتاة مختلة عقليا.. أم عاشت تجربة كهذه بالفعل!!.

لنقرأ القصة معا.. ولي عودة بعد ذلك للتعليق.

الدكتور (........)

الإجازة الصيفية.. الحلم الذي يعيش من أجله وينتظره كل طالب.. فطلبة المدارس لا يفكرون عادة بالمستقبل البعيد.. بل ينتظرون الإجازة فحسب.. ويشعرون في بدايتها وكأنها ستدوم إلى الأبد.. أتحدث عن نفسي على الأقل.. لذا لا يمكن أن يتصور أحد سعادتي حين أنهيت الاختبارات النهائية.. ذلك اليوم الذي عدت فيه إلى البيت وقد رميت أعباء السنة الدراسية كلها خلف ظهري أخيرا.. لأذهب إلى الفراش وقد قررت أن أنام كما لم أنم من قبل.. ذلك النوم الذي أستيقظ منه بابتسامة عريضة وأبدأ بوضع الخطط للاستمتاع بوقتي خلال إجازتي الصيفية الطويلة.. هكذا هو اليوم الأول من الإجازة.. وتكون الأيام التالية أجمل بالطبع حين تظهر نتيجة العام الدراسي.. وأنجح بتفوق يرضيني ويرضي والديّ.

لكن.. المشكلة الأزلية أن كل شيء في حياتنا يتحول إلى روتين.. حتى الإجازة نفسها.. مما يجعلك تبحث عن أشياء أخرى تقتل فيها وقتك!!.. هذا ما كنت أقوله لابنة عمتي (رنيم) والتي أعتبرها أقرب صديقاتي.. فقد خرجنا معا.. وذهبنا إلى السينما.. وجلسنا في البيت نشاهد الأفلام.. وتحدثنا عن مغامراتنا العاطفية.. وخرجنا أكثر من مرة مع مجموعة من صديقاتنا.. أي أننا فعلنا كل شيء تقريبا خلال الشهر الأول

من الإجازة.. ليبدأ الملل يطل على حياتنا تدريجيا.. ونبدأ في البحث عن شيء جديد نفعله.. نفكر.. ونفكر.. من دون أن أتصور للحظة أن حياتي ستمر بمنعطف خطير للغاية في الأيام القليلة التالية.

أتذكر ذلك المساء جيدا.. حين زارتني (رنيم) لتقضي الليلة في بيتنا.. وقد ظننته يوما لن يختلف عن أي يوم آخر.. إلى أن جاء وقت النوم.. حيث ذهبْت إلى فراشي.. وذهبت (رنيم) للاستلقاء بدورها على المفرش المريح الذي وضعته لها أمي على الأرض.. وقد غرقنا في ظلام الغرفة الدامس.. وكل منا تتحدث عن ما يجول في خاطرها.. إنها اللحظات الحميمة التي تشعر فيها برغبة شديدة في البوح بأسرارك.. وربما تختلق قصة غير موجودة على أرض الواقع.. فقط لأن الأجواء تتطلب ذلك.. لكن.. شعرت ليلتها أن (رنيم) بدت مترددة قلقة.. وكأنها تريد أن تقول شيئا.. إلا أنها تخشى ردة فعلي.. مما جعلني أطلق ضحكة وأنا أستغرب ترددها هذا وأؤكد لها أنني كاتمة أسرارها كما كنت دوما.. وتستطيع أن تخبرني بما تريد.

لقد توقعت منها كل شيء.. سوى ما قالته!!.. حين بدأت تتحدث عن تفاصيل قراءاتها لكتب الغموض والماورائيات التي أدرك عشقها لها.. أما أنا فأبغض هذه الأجواء السوداوية.. لكن (رنيم) ذكية..

تعرف كيف تجذبني إلى عالمها بسبب قوة شخصيتها.. وتأثيرها الكبير علي.. أعترف بهذا.. فلم يكن من العسير أن تجرني ليلتها إلى التفكير بأسرار الكون ونشأة الأرض وتاريخ حضاراتها المجهول.. لتتحدث بعد ذلك عن انضمامها لبعض المنظمات الخاصة بالأفكار الغريبة الخارجة عن المألوف.. لا أعرف مرادفا في اللغة العربية لكلمة (Cult)* التي استخدمتها أكثر من مرة أثناء حديثها.. ربما تعني (مجتمع سري).. حيث وجدت (رنيم) طريقها لإحدى هذه المجتمعات السرية وانضمت لها من خلال (الشبكة العميقة) (Deep Web)** التي تمكنت من الولوج إليها بطريقة لم تخبرني

---

* (Cult) مصطلح انجليزي شهير جدا.. ويشير غالبا إلى الجماعات الصغيرة المنغلقة التي تعتنق عقيدة غامضة -كعبادة الشيطان مثلا- أو أفكار غريبة خارجة عن الإطار السائد.. وعدد تلك الجماعات السرية كبير جدا حول العالم بالمناسبة.

** (الشبكة العميقة) (Deep Web) هي الجزء الخفي والمخيف من (الإنترنت).. والذي لا يخضع للرقابة من أي جهة.. وهذه الشبكة عبارة عن محرك بحث ضخم جدا لكن مواقعه لا تخضع لأرشفة محركات البحث العادية مثل (Google) وغيره.. بل تتطلب برامج وإعدادات متخصصة أو تفويض محدد للدخول إليها.. وتملك هذه المواقع امتدادات غريبة ومعقدة جدا على عكس (com) و(org) و(net) المتعارف عليها.. كما تحتوي (الشبكة العميقة) على مستويات كثيرة.. وكل مستوى يختلف في صعوبة الوصول إليه.. فهناك المستوى الذي يحتوي على معلومات أكاديمية ومعلومات حكومية سرية.. ويعتبر أقل مستويات (الشبكة العميقة) خطورة.. أما المستوى الثاني فيحتوي على برامج تعليمية لاختراق المواقع (الهاكر).. في حين يطلق على المستوى الثالث مصطلح (الشبكة المظلمة) (Dark Web) والذي يحتوي على مواقع كثيرة جدا تعتبر أخطر وأقذر ما أنتجه العقل البشري.. مثل مواقع تجارة الأعضاء البشرية.. ومواقع بيع المخدرات.. والجنس مع الأطفال.. ومواقع بيع الأسلحة غير القانونية.. ومواقع القتلة المأجورين.. حيث يضع كل قاتل شروطه=

عنها.. كانت هذه المرة الأولى أيضا التي أعرف فيها بوجود عالم خفي مرعب كهذا.. الأمر الذي أثار فضولي.. واشمئزازي بنفس الوقت!!!.. حتى شعرت بشيء من عدم الأمان.

وفي هذه الليلة.. سمعت من (رنيم) مصطلح (السجلات الأكاشية) التي يظنها الكثيرون محض خيال على حد قولها.. قد تتساءل يا دكتور عن ماهية (السجلات الأكاشية) هذه.. أنا نفسي لم أكن أعرف عنها شيئا.. يفترض أنها تاريخ الكون بأكمله موثق وموجود بصورة طبيعية في أثير الفضاء الخارجي*!!..

=مقابل تنفيذ جريمته.. ومواقع التمثيل بالجثث.. والبث المباشر لتعذيب الأطفال والنساء الذين يتم اختطافهم!!.. إذ يفترض أن يدفع المرء مقابل المشاهدة لإرضاء ساديته.. ولا ننسى مواقع تعليم صناعة الأسلحة وطهي البشر!!.. وللأسف فإنه من المستحيل تقريبا إغلاق (الشبكة العميقة) كونها هائلة الحجم وخيوطها كثيرة للغاية من المستحيل تتبعها.. وقد تأسست مؤخرا وحدة خاصة لمكافحة الجرائم الرقمية بدعم من مركز الجرائم الرقمية الأوروبي وبالتعاون مع العديد من البلدان.. منها (الولايات المتحدة الأمريكية).. ساعية بذلك إلى مكافحة الجرائم والأنشطة التي تمارس في (الشبكة العميقة).. إلا أنها لم تحقق النتائج المرجوة حتى الآن.

* هذا ما يقال بالفعل.. ويرى معتنقو البوذية أن (السجلات الأكاشية) (Akashic Records) حقيقية تماما.. وقد ادعت العرافة والفيلسوفة الروسية (هيلينا بلافاتسكي) (Helena Blavatsky) في القرن الـ 19 أنها استطاعت الولوج إلى هذه السجلات بطريقة غامضة تعلمتها من رهبان (التبت).. مما جعلها تعرف كل أسرار الكون.. ولا ننسى العراف الأمريكي (إدغار كايس) (Edgar Cayce) الذي ادعى أوائل القرن الماضي أن أغلب نبوءاته أخذها من تلك السجلات.. إلا أنها في نهاية الأمر مجرد ادعاءات لا يوجد ما يؤكدها.. علما أن لفظة (أكاشا) (Akasha) لفظة (سنسكريتية) وهي لغة (الهند) القديمة.. وتعني (الأثير) أو (السماء).

لكن لا نعرف بأي صيغة.. وبأي نمط.. وكيفية الاطلاع عليها.. فهل ستكون صور ضوئية مخفية في السماء مثلا؟!.. أم أرقام تظهر لنا في الهواء وعلينا تفسيرها؟!.. لا أعلم.. المهم أنها كانت مؤمنة تماما بكلامها وتدافع عنه بحرارة.. بل وادعت أنها عرفت -من خلال الشبكة العميقة- طريقة الولوج إلى (السجلات الأكاشية) لتطلّع على كل أسرار الكون وتعرف ما لم يعرفه بشر قبلنا!!.

سألتها بشيء من السخرية عن كيفية الولوج إلى تلك السجلات المزعومة.. لتخبرني عن مصطلح آخر جديد.. (العين الثالثة)*!!.. تقول أنها عثرَت في (الشبكة العميقة) على أحد مواقع (الإنترنت) المشبوهة التي تعلمك ممارسة السحر من خلال تعاويذ كثيرة وبعض الممارسات الغامضة التي تفتح لك عينك الثالثة.. ومن عينك الثالثة هذه.. تستطيع أن ترى (السجلات الأكاشية)!!.

---

* (العين الثالثة) (Third Eye) مصطلح مثير للجدل.. وهو جزء من معتقد قديم جدا تعود جذوره إلى آلاف السنين.. حيث يُعتقد أن العين الثالثة هذه موجودة عند كل إنسان.. وتحديدا على جبهته.. وهي بمثابة بوابة الدخول إلى عالم المجهول.. فتسمح له برؤية أشياء لا يمكن أن تراها العين المجردة.. بل أن هناك اعتقادا لدى البعض أن ممارسي السحر وبعض العلماء -منهم العالم الشهير (آينشتين)- تمكنوا من فتح عينهم الثالثة.. لكي يحظوا بذكاء خارق ويحققوا كل الإنجازات التي حققوها.. ويقال أنه لو تمكن الإنسان من فتح عينه الثالثة.. فسيتمكن أيضا من تحريك الأشياء من دون لمسها.. والسفر إلى الماضي عن طريق الذاكرة.. وستزداد حدة الحواس الخمس لديه ويرتفع معدل ذكائه إلى درجة عالية جدا.. مع إمكانية قراءة أفكار الناس.. وسيتمكن من رؤية الجن والشياطين.. لكنها في النهاية مجرد أقاويل لا يوجد ما يؤكدها.

لم أشعر بالارتياح لكلامها رغم استمتاعي بما قالته.. تماما كما نستمتع بقصة رعب قبل النوم رغم أنها تخيفنا.. مما جعلني أحاول تلطيف الأجواء قليلا.. فقد أطلقت ضحكات خافتة مصطنعة وأنا أطلب من (رنيم) أن تبتعد عن أفكارها الخيالية.. والابتعاد عن تلك الجماعات المنحرفة التي تنضم إليها وتتلف تفكيرها.. ثم طلبت منها أن ننهي الحديث ونخلد إلى النوم.. خاصة مع تأخر الوقت.

لكنها لم تتوقف عن الإلحاح والتحدث عن الأمر حتى في الليلة التالية.. فبدأت أنجرف خلفها لا شعوريا وهي تقودني بإصرار عجيب.. إلى أن وجدت نفسي أجلس معها في غرفتي حيث الأنوار مطفأة.. وأنا أمسك بيدها.. لتقرأ هي من شاشة هاتفها تعاويذ كثيرة من أحد الكتب السرية التي عثرت عليها في (الشبكة العميقة).. ثم تلا ذلك حرق ورقة شجر صغيرة كانت (رنيم) قد جاءت بها قبل أن نبدأ.. لتنثر بعد ذلك كومة صغيرة جدا من التراب كانت قد جاءت بها أيضا.. وطلبت مني أن أستنشقها معها!!!.. ممارسات غير مريحة كما ترى.. لكنها أثارت فضولي بالفعل!!.

لقد استغرق الأمر ساعتين شعرت خلالهما ببعض الملل.. لكن (رنيم) أصرت على الاستمرار.. ثم.. لم يحدث أي شيء!!.. فشعرت بغباء لا حدود له لأنني استمعت لها ونفذت تلك الطقوس السخيفة.. هذا ما قلته لها.. في حين بدا الجمود الواضح على ملامحها.. وكأنها اكتشفت للتو أن كل ما آمنت به كان هراء.. حتى أننا نمنا ليلتها بصمت وقد شعرت بحنق شديد تجاه الوقت الذي ضاع.. ولم أتوقع للحظة أنني سأستيقظ لأرى ما رأيناه!!!.

كان هذا في الثانية ظهرا.. حين سمعت طرقات والدتي على الباب وهي تخبرنا أن علينا الاستيقاظ بعد أن تأخر الوقت وحان موعد الغداء.. فرددت عليها وأنا تحت اللحاف أنني استيقظت فعليا وسأذهب مع (رنيم) للاغتسال.. كنت أقولها بشرود لأنني انتبهت لذلك النور في غرفتي والذي لا يمكن أن يكون مصدره أشعة الشمس.. كوني أحرص دوما على إغلاق الستائر قبل النوم.. فأزحت اللحاف عن وجهي سريعا لأجد أمامي تلك المفاجأة المذهلة التي بدت وكأنها جزء من حلم ما زلت أعيشه!!!.. لكني كنت مستيقظة.. أي أن ما أراه حقيقيا تماما وإن كان أقرب إلى الخيال.. لا.. لم أشعر بأي خوف.. فكيف يشعر المرء بالخوف أصلا أمام هذا الجمال؟!!.

لقد كان هناك منظر رائع لا يمكن أن تراه سوى في الريف الأوروبي.. أشجار وأعشاب وزهور رائعة ومروج خضراء.. مكان أشبه بالجنة.. وكأنه قطعة من عالم (بيضاء الثلج) أو (سندريلا).. الغريب أنني كنت أرى المنظر من خلال نافذة كبيرة الحجم فتحت فجأة في وسط غرفتي!!.. وكأنني أمام شاشة تلفاز حديث كبير الحجم.. لم تكن مجرد صورة.. بل بث حي من دون صوت كما بدا لي.. وبدا هذا واضحا من الأنسام الهادئة التي تتلاعب بالأعشاب والزهور برقة بالغة.. فأطلقت شهقة قوية من فرط الجمال الذي أراه.. وهمست منادية (رنيم) أن تصحو بسرعة.. لتمر بنفس مشاعر الصدمة التي عشتها.. بسبب هذا المشهد الذي يأسر القلوب!!.

ظللنا في مكاننا نحدق بما نراه والصمت خيم تماما على الغرفة.. إلى أن نهضت (رنيم) من مكانها برهبة.. واتجهت ناحية تلك النافذة المجهولة تتحسسها.. ثم حاولت أن تمد يدها إلى الداخل.. لكنها عجزت عن ذلك.. وكأنها شاشة تلفاز بالفعل.. أما أنا.. فنظرت حولي للتأكد من عدم وجود جهاز بث سينمائي.. لتتضح الحقيقة مهما بدت غرابتها.. إنني أؤكد لك أن هذه النافذة ظهرت من تلقاء نفسها يا دكتور!!.

أعرف أنك تفكر بتجاوز صفحات القصة ظنا منك أن ما تقرؤه كلام مجانين.. أو أنني أكذب.. لكني أكتب ما مررت به بكل صدق وأمانة.. المهم أنني سألت (رنيم) برهبة وخفوت:

- كيف يعقل هذا؟!.. بل.. ما هذا بالضبط؟!.. هل للأمر علاقة بما فعلناه قبل نومنا؟!.

ردت بانبهار:

- لا أستطيع التفكير الآن.. فما أراه يخلب لبي.. هذا أقرب إلى الشِّعر المرئي!!.

لم أجد الوقت لأرد عليها.. فقد طرقت أمي الباب للمرة الثانية.. وفتحته سريعا قبل أن نأذن لها!!.. حسنا.. هذه صدمة جديدة لم تخطر ببالي.. إذ لم تنتبه أمي لأي شيء.. فقط نظرت إلينا.. ورأت نظرات الاستغراب في أعيننا من دون أن تفهم السبب.. ثم طلبت منا -بإلحاح- النزول إلى الطابق الأرضي لتناول الغداء حيث والدي وأشقائي ينتظروننا.. لتغلق الباب وتتركنا.

رحت أحدق بـ(رنيم) باستغراب.. لتنفرج ملامحها فجأة وتقول بانتصار يشوبه الذهول:

- إننا وحدنا نرى ما يجري.. فوالدتك لم تنتبه لشيء.. لقد نجح ما فعلناه قبل نومنا!!.

سألتها بقلق:

- ماذا لو دخلت أمي الغرفة وسارت تجاه النافذة؟!.

ردت بلهفة:

- ستعبر والدتك خلالها وكأنها غير موجودة.. ألا تفهمين؟!.. لقد فتحنا العين الثالثة لكل منا!!.. أنا وأنتِ فقط نرى النافذة ونشعر بوجودها وملمسها.. بغض النظر عن أننا لا نسمع أي صوت يأتي منها.. يا إلهي.. منذ طفولتي وأنا أحلم بالمرور بتجربة خارقة خارج القدرات البشرية.. حتى أصبت بهوس البحث عن كل شيء غريب في هذا العالم.. لكني لم أظن للحظة أننا سننجح ونكشف الحجاب عن العين الثالثة هذه.

قلت وقد شعرت ببعض الخوف:

- دعينا نذهب لتناول الغداء كي لا نثير شكوكهم.. ثم نعود إلى الغرفة كي نفكر ونفهم ما يحدث.

لا بد أن أذكر هنا أن هذه كانت أسوأ وجبة أتناولها في حياتي.. إذ كنت آكل ولا أشعر بطعم الأكل أصلا.. وأنتظر مع (رنيم) لحظة نهوضنا وعودتنا إلى غرفتي للنظر والتمعن أكثر في تلك النافذة الغامضة التي لا نعرف ماهيتها حتى الآن.. لكن شرودنا بدا واضحا للجميع.. حتى أن أبي سألنا بمرح عن سببه.. فادعينا أننا مرهقتان قليلا بسبب السهر ولم نحصل على كفايتنا من النوم.

عدنا أخيرا إلى غرفتي.. حيث قفلت الباب هذه المرة.. ورحنا نشاهد ذلك المنظر المذهل.. نفس الروعة والجمال.. منظر لا يمكن أن تتخيله إلا لو رأيته بنفسك.. وقد حاولنا مرة أخرى وأخرى أن نمد أيدينا لنخترق النافذة.. لكن من دون جدوى.. هناك حاجز غير مرئي يفصلنا عن العالم الموجود خلفها.. و.. لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن يظهر فجأة أجمل شاب رأيته في حياتي.. شاب في أوائل العشرينيات من العمر.. يرتدي ثيابا فضية براقة ملتصقة بجسده.. وكأنه لباس الفضائيين في أفلام الخيال العلمي.. شاب كهذا لا يمكن أن يكون من عالم الإنس!!!.

كان يسير بهدوء وهو يمارس حياته بطريقة طبيعية.. ثم يجلس تحت ظل شجرة رائعة الجمال.. يتأمل العالم من

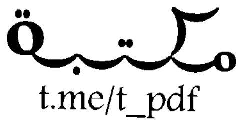
حوله.. وينظر إلى السماء.. ليخرج بعدها من جيبه ورقة فضية.. وقلما رفيعا جدا لم أرَ مثله من قبل.. ككل شيء آخر في هذه النافذة.

أرى الشاب يكتب شيئا ما.. لا يمكن أن يكتب في مكان كهذا سوى الشعر.. يبدو وحيدا.. حزينا.. لكن ليس بسبب مشكلة ما.. أتحدث عن الحزن اللذيذ الذي يشعر به الأديب والشاعر.. كم أتمنى أن أتمكن من التحدث إليه.. إنه فارس أحلام كل فتاة.. بل المكان بأكمله (مكان الأحلام) إن صح التعبير.

ومن عيني.. خرجت دمعة.. نعم.. روعة ما أراه جعلتني أبكي لا شعوريا.. هذا المكان الذي يحلم كل إنسان أن يعيش فيه طوال العمر.. هكذا قلت لـ(رنيم).. أما هي.. فراحت تنادي الشاب بصوت مبحوح وهي ترجوه أن ينظر إلينا.. لكن -كما توقعنا- كان واضحا أنه لا يرانا ولا يشعر بنا ولا يسمعنا.. يبدو أن النافذة فتحت ناحيتنا فقط.

(رنيم) تقول برهبة:

- لقد نسيت أنني مجرد فتاة تعيش في عالم طبيعي وأتواجد حاليا عندك في الغرفة!!.



لأرد عليها مؤكدة:

- إننا كمن يرى الجنة على بعد مترين منه.. وهو عاجز عن دخولها!!.. هذا مؤلم.

في اليومين التاليين.. لم نفعل أي شيء سوى التواجد في الغرفة والنظر عبر تلك النافذة.. الغريب أننا حاولنا التقاط الصور لما نراه فيها.. لكن.. ظلت شاشة الهاتف لا تلتقط سوى صورا لأجزاء من غرفتي.. وهذا متوقع.. إننا نرى -بواسطة العين الثالثة- ما لا يستطيع أن يراه أحد.. حتى الكاميرا نفسها.. أتذكر أن (رنيم) أخبرتني بفكرة غريبة قرأتها في أحد الكتب.. أن هناك عوالم أخرى بذبذبات مختلفة موجودة بيننا ولا نشعر بها.. وهذا العالم الذي يعيش فيه الشاب قد يكون أحدها!!.. وربما يفسر هذا وجود الجن من حولنا من دون أن نراهم أو نشعر بهم.. لكني ما زلت مصرة على أن ما رأيناه لا علاقة له بالجن.. وأن الشاب مخلوق بشري مثلنا.. أو.. هذا ما يبدو عليه الأمر على الأقل رغم غرابة ثيابه وعالمه بأكمله.

مهلا.. هل نحن ننظر إلى المستقبل البعيد؟!.. نقلت خواطري إلى (رنيم).. لترد وهي تشهق:

- بالفعل.. لم أفكر بذلك على الإطلاق.. أنا لا أعرف القدرات التي تمنحها العين الثالثة.. فكل ما نعرفه أقاويل.. لكن كل ما يظهر لنا يوحي أننا نرى المستقبل.. لا أعرف أي مستقبل.. أو أي عام إن صح التعبير؟!.. وإلى متى ستستمر تلك النافذة مفتوحة؟!.. ثم ماذا عن (السجلات الأكاشية)؟!.. أين هي؟!.. هل ستظهر لنا مكتوبة.. وبأي لغة؟!.. وما علاقتها أصلا بما نراه؟!.. أنا لا أفهم شيئا مما يحدث.

فأسكت وأنا أهز كتفي كناية عن جهلي أيضا.. وأحدق مرة أخرى بذلك الشاب الوسيم.. هنا يجب أن أذكر نقطة مهمة.. أن (رنيم) فتاة جريئة جدا.. وأشجع مني بكثير.. فقد نظرت إلي نظرة طويلة.. لتقول صراحة:

- أريد أن أدخل هذا العالم وألتقي بذلك الشاب!!.. أريد أن أكون معه.

التفت إليها وأنا أسألها باستغراب تشوبه بعض الغيرة:

- كيف ستفعلين ذلك؟!.. لا توجد طريقة للتواصل معه.. لقد حاولنا.

تصمت وهي تغمض عينيها مفكرة.. ثم تحاول أن تمد يدها للمرة المائة إلى داخل هذا العالم.. وتنادي الشاب بصوت تشوبه الرهبة من دون جدوى.. ليسود الصمت دقائق طويلة.. إلى أن جاءت (رنيم) بفكرة غريبة.. فقد طلبت مني أن آتي ببعض البخور بسرعة.. في البداية لم أفهم السبب.. لكني نفذت طلبها.. لم يكن الأمر عسيرا أن أعثر على البخور ومستلزماته كما هو الحال في كل بيت.

وما إن جئت بما طلبَته.. حتى أخذت (رنيم) المبخر وأشعلت فيه قطعة فحم.. ووضعت عليه بعض البخور.. لتنتشر رائحته سريعا في الغرفة.. ثم وضعت المبخر على الأرض بحيث يتجه البخور إلى تلك النافذة.. لكنه لم يدخلها للأسف.. بل كان يتبعثر في هواء الغرفة.. وكلما تحترق قطعة البخور.. كانت (رنيم) تضع قطعة أخرى بصبر.. حتى استمر الوضع 9 ساعات كاملة لم نترك فيها مكاننا تقريبا.. وكل منا تحدق بذلك الشاب وهو ينهض من مكانه ويسير.. ليعود فيجلس.. ويغيب عن مرمى بصرنا.. فيظهر بعدها.. من دون أن نشعر بأي ملل من شدة وسامته وروعة المكان الذي نراه.. ولا ننسى الأطفال.. نعم.. لقد ظهر عدد غير قليل من الأطفال رائعي الجمال

الذين كانوا يلعبون بمرح.. جميعهم يلبسون ذات الثياب الفضية.. ليتنا نستطيع سماعهم.. هل تعرف الأطفال الذين يبدون كالملائكة؟!.. الذين تتمنى لو تتمكن من ضمّهم والضغط عليهم بكل قوتك*؟!.. لم يكن هذا متاحا للأسف.. فكنا نشاهدهم فقط وسط تلك المروج الخضراء والأشجار والزهور.. و:

- انظري.. انظري.. انظري!!.

تقولها (رنيم) بلهفة وهي تتقافز في مكانها.. فأنظر إلى حيث تشير.. لينفجر الحماس في جسدي وأبدأ أتقافز مثلها.. البخور.. إنه يمر خلال النافذة من دون أن ينتبه له الشاب أو الأطفال.. وللأسف.. أنسانا هذا الاكتشاف أن نمد أيدينا على الأقل للتأكد من إمكانية مرورنا داخل النافذة.. خاصة وأن الأمر لم يستمر سوى لحظات قليلة.. قبل أن تعود النافذة كشاشة تلفاز لا يمكن اختراقها.. فحاولنا تكرار الأمر ولم ننجح.. حينها فقط قالت (رنيم) وهي تفكر بعمق:

---

* يطلق علم النفس على تلك التصرفات مسمى (العدوان اللطيف) (Cute Aggression).. وهي حالة شهيرة تصيبك حين ترى كائنا لطيفا كالأطفال أو القطط الصغيرة مثلا.. مما يجعلك تشعر برغبة شديدة باحتضانه بقوة أو تقبيله بعنف.. والأسباب مجهولة حتى الآن.. فما زال علماء النفس يجرون دراساتهم حول الأمر.

- لقد كانت الساعة تشير إلى 2:06 فجرا حين اخترق دخان البخور تلك النافذة.. ربما تفتح النافذة كل يوم في مثل هذا الوقت!!.. لا بد أن نحاول غدا.. قد يكون استنتاجي صحيحا.

شعرت بالقلق.. فسألتها بتردد:

- ماذا لو نجحتِ وتمكنتِ من دخول النافذة ثم عجزتِ عن العودة؟!.

ردت بحزم:

- سأضحي بكل شيء لأكون في عالم كهذا.. بالمناسبة.. سآخذ معي هاتفي.. علني أ، تطيع التقاط بعض الصور.. لا أعرف جدوى ذلك.. لكننا نحتاج إلى دليل.. آمل أن تعمل الكاميرا حين أكون هناك.. وإن كنت أظن -بصراحة- أنني لن أعود أبدا لو سارت الأمور كما أتمنى!!.

انتفضتُ غير مصدقة.. ثم قلت بعصبية:

- هل جننتِ؟!.. كيف تتخلين عني بهذه البساطة؟!.. إنك أقرب صديقاتي وابنة عمتي بنفس الوقت.. ثم ما الذي سأقوله لو سألني أحد عنك؟!.. ماذا عن والديك؟!.. سيموتان قلقا عليك.

نظرت إلي طويلا.. ثم احتضنتني وهي تهمس في أذني:

- أرجوك.. طوال حياتي أحلم بالذهاب لمكان بعيد جدا.. لعالم نظيف جميل طاهر.. سواء أخذني إليه طبق طائر.. أو آلة زمن.. أو نافذة كهذه.. وها قد جاءت الفرصة على طبق من ذهب!!.. أعرف أن أهلنا سينهارون قلقا علي.. وسيبحثون عني لفترة طويلة.. أعرف أيضا أن في هذا أنانية بالغة.. لكنها حياتي.. واختياري.. عموما.. سأفكر في ذلك فيما بعد.. دعينا نذهب للنوم الآن.. وسنتأكد غدا -في نفس الموعد- إن كانت النافذة ستسمح للأشياء بالمرور منها.

سألتها بقلق:

- ثم ماذا؟!.

أجابت ببطء وهي تفكر:

- سأعود في اليوم التالي إلى بيتنا.. وسآتي لزيارتك بالسر في وقت متأخر.. سأحرص على ألا يراني أحد أثناء خروجي.. وسأتسلل إلى غرفتك كي لا يراني أحد من أسرتك أيضا.. فلو اخترت البقاء في ذلك العالم أو عجزت عن العودة منه.. تستطيعين إنكار معرفتك بكل شيء.. وسيظن الجميع

أنني كنت نائمة بأمان في غرفتي.. ثم اختفيت لأسباب مجهولة!!.. أو.. ربما أترك رسالة أخبركم فيها أنني رحلت من هنا وعليكم ألا تبحثوا عني.

لم يرق لي كلامها.. فقلت بحدة:

- وكيف سأعيش بوجود هذه النافذة في غرفتي؟!.. إنها كشاشة تلفاز يعمل طوال الوقت!!.

ردت مبتسمة:

- لكنك ترين خلالها أجمل منظر ممكن أن تقع عليه عيناك.. هل شعرت بالملل أو الخوف من وجودها؟!.

تخاذلت وأنا أطرق برأسي وأهزه نفيا.. ثم سألتها باستسلام:

- وما أدراك أنك ستتمكنين من اختراق النافذة؟!.. ربما ما حدث مع البخور لن يتكرر مرة أخرى!!.

تنهدت بعمق وهي تقول موافقة:

- لهذا سنحاول مرة أخرى غدا.

تمنيّت ألاّ يكون استنتاجها صحيحا.. لكنه كان كذلك للأسف!!.. ففي اليوم التالي.. وبنفس الموعد.. تكرر الأمر مع البخور.. لتمد (رنيم) يدها وتخترق النافذة بالفعل.. لكنها سحبت

يدها بسرعة خوفا أن تعلق هناك بعد أن تنتهي اللحظات القليلة هذه.. وهذا ما جعلها تقرر -بحسم- الإقدام على تلك المغامرة في اليوم التالي ودخول ذلك العالم الجميل.

لم يكن تسللها من بيتها في وقت متأخر أمرا عسيرا.. فبيت عمتي يقع في الحي المقابل فحسب.. لذا لم أكن أتوقع أي مشاكل.. ففي الواحدة والنصف فجرا.. فوجئت بـ(رنيم) تدخل غرفتي وهي ترتدي فستانا جعلها فاتنة.. لحسن الحظ لم يرها أحد وإلا ظن والدها أنها على موعد مع شاب.. حسنا.. إنها في الواقع على موعد مع شاب!!.. لكنه من عالم آخر ولا تنطبق عليه المقاييس الأرضية.. المهم أنها أغلقت باب غرفتي خلفها.. ثم ألقت علي تحية سريعة وهي تخبرني أنها ستستخدم أدوات التجميل الموجودة عندي.. كونها تريد أن تبدو في أبهى صورة حين تعبر النافذة وتلتقي بذلك الشاب.

حاولت تحذيرها للمرة العاشرة ربما من خطورة ما تقوم به.. وخوفي من هذه المغامرة التي لا ندرك عواقبها.. لكنها قالت مبتسمة:

- صدقيني كل تحذيراتك هذه لن تثنيني.. أرجوك تذكري جيدا.. لو لم أعد لأي سبب.. عليك إنكار أنك رأيتني..

تماما كما خططنا.. فأنا واثقة أن أحدا لم يرني وأنا أخرج من بيتنا وأدخل بيتكم!!.

قالتها ثم اتجهت ناحية المرآة مستخدمة أدوات التجميل الخاصة بي.. ونحن نتحدث ونتحدث حول الأمر ذاته.. إلى أن حانت اللحظة الموعودة!!.. (رنيم) تقف أمام تلك النافذة بكامل زينتها.. وهي تنظر إلى ساعة هاتفها كل لحظة.. جزء مني يتمنى أن تفشل خطتها.. لكن.. ما إن حان الموعد.. حتى مدت يدها داخل النافذة.. فاخترقتها وهي تلتفت إلي وتبتسم.. ثم دخلت بكل جسدها.. وأصبحت أخيرا داخل ذلك العالم وهي تنظر حولها بانبهار شديد.. وقلب يخفق بقوة كوني أرى صدرها يعلو ويهبط بسرعة.. إنها تبكي.. فهي تعيش هذه الروعة ولا تنظر إليها من الخارج كما أفعل أنا.. إلا أنها مسحت دموعها حين رأت أحدهم قادما نحوها.. لم أكن أعرف ما الذي تراه تحديدا لأنه يقع خارج نطاق بصري.. ليظهر ذلك الشاب أمامها.. يبدو أنه اعتاد المجيء إلى هنا.. أو أن بيته قريب من هذا المكان.. إنه يحدق بـ(رنيم) باستغراب شديد.. في حين تنظر هي إليه بحنان.. الشاب يضع يده على خدها وكأنه أعجب بجمالها.

عندها فقط.. انفتحت بوابة جهنم أمام عيني.. حين أمسك الشاب برقبة (رنيم) فجأة.. وراح يصرخ.. لكن صوته لم يصل إلي.. وكأنني أشاهد فيلما صامتا.. أو.. فيلم رعب صامتا!!.. ويبدو أن (رنيم) لم تجد الوقت لتستوعب ما حدث.. فقد هرع الأطفال سريعا تجاهها.. وانقضوا عليها و.. و.. بدأوا بالتهامها!!!!.. نعم.. أقسم لك يا دكتور.. كان هذا أبشع منظر ممكن أن أراه في حياتي.. وكأنني أشاهد أحد أفلام الـ(سناف)*.. في حين راح الشاب ينظر بفخر للأطفال وهم يلتهمون (رنيم) التي لم تصرخ ولم تفعل أي شيء من قوة المفاجأة.. إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة أمام عيني!!!.. أما أنا.. فلم أتمكن من الصراخ أيضا بعد أن انحبس الصوت في حنجرتي.. ويبدو أن الشاب أدرك وجود فتحة بين عالمينا.. إذ لوح بكفيه في الهواء وهو يتمتم بكلمات مجهولة.. لتغلق النافذة إلى الأبد وتختفي تماما من غرفتي!!.

* (فيلم سناف) (Snuff Film).. مصطلح يطلق على الفيلم الذي يتم فيه تصوير جريمة قتل حقيقية أو تعذيب البشر لمجرد متعة المشاهدة.. وقد تم استخدام لفظة (Snuff Film) لأول مرة عام 1971 من قبل الكاتب والروائي (إد ساندرز) (Ed Sanders) في كتابه (العائلة) (The Family).. ويعد فيلم (8mm) للنجم العالمي (نيكولاس كيج) من أشهر ما أنتجته (هوليوود) عن فكرة أفلام (سناف).

لقد بدا لي ذلك المكان كالرمال الجميلة الناعمة التي تسر النظر.. لكنها تبتلعك ما إن تضع قدمك عليها.. حينها لن تفيد معرفتك بخطورتها.. لذا لم يكن مستغربا أن يغمى علي لساعة أو ربما أكثر.. وما إن استيقظت.. حتى قفزت الحادثة في ذهني مباشرة.. فانهرت باكية.. كانت لحظات مخيفة.. مخيفة.. أخرج إلى الحمام وأغسل وجهي بيد مرتجفة.. علي أن أتماسك وأكذب على الجميع كما خططنا.. علي أن أدعي أنني لا أعرف شيئا.. فحتى لو أخبرتهم بما حدث.. لن يصدقوني.

وقد نجحت في إخفاء الحقيقة.. لكن قلبي كان يتمزق على أفراد العائلة وهم يبحثون عن (رنيم) في كل مكان بعد أن أبلغوا الشرطة بالطبع.. أما أنا.. فقد انحدرت حالتي النفسية إلى الحضيض.. وبت أخشى النوم في غرفتي بعد أن شهدت فيها أسنع ما يمكن رؤيته.. فكنت أبدو حزينة متوترة أمام الجميع الذين ظنوا أنني قلقة فقط على مصير (رنيم).. ولا يعرفون أنني شهدت مصيرها البائس بنفسي.

لقد ظللت أستيقظ طوال الأيام التالية والعرق يتصبب من جبيني.. أبكي وأصرخ.. وقد خسرت الكثير من وزني وفقدت الرغبة بكل شيء.. حتى شعر والدي بالقلق على حالتي..

خاصة بعد أن أكدت الفحوصات الطبية أن مشكلتي نفسية بحتة.. حينها فقط أخذني إلى مستشفى الطب النفسي.. فرأى الطبيب أن علي المكوث في المستشفى قليلا.. حيث أقيم هنا منذ بضعة أيام.

هذه قصتي باختصار.. أعرف أنك لن تصدقني يا دكتور.. وربما ستطلب مني أن أحدثك بالعقل والمنطق.. لكن من يطلب ذلك لا يقصد العقل والمنطق بمفهومهما.. بل يقصد أن نخاطبه بما هو متعارف عليه.. وأنا أؤكد لك أن ما رأيته لم يكن متعارفا عليه.. وخارجا عن المألوف.. وأنا لن أكذب عيني أبدا.

لقد فتحت مع (رنيم) نافذة تؤدي إلى عالم آخر.. ما هو هذا العالم؟!.. لا أعرف.. ربما هو عالم الجن.. كم أشعر بالذنب لأنني لم أمنع (رنيم) من فعلتها هذه.. هذا الذنب يقتلني.. إنني أعيش حصاد سوء اختياري.. وهو أسوأ حصاد!!.

أشعر أنني أسير في نفق مظلم يا دكتور.. وأنا لا أريد النور في آخر النفق.. أريد فقط من يسير معي في هذا النفق!!.. فالأسئلة في دماغي أكبر من دماغي نفسه!!.. إنني تائهة.. كطائرة ورقية أفلَتها طفل.. لقد تغير عالمي بأكمله حين تغيرت الأشياء التي

ظننتها ثابتة.. ولا تظن أنني بحاجة لهدوء أعصاب.. بل أحتاج لأعصاب جديدة تنسيني ما رأيته خلف ذلك المكان اللعين.. خلف النافذة.

الخاتمة

كما ترون.. القصة غريبة جدا.. إلا أنني واثق أن (أبرار) مقتنعة تماما بكلامها.. وحتى لو كانت تهذي.. فهذا لا يجيب على السؤال الحاسم.. أين اختفت (رنيم)؟!!.. إن هذه القصة تذكرني قليلا بأسطورة عروس البحر التي تظهر للصيادين.. حيث يقترب منها الصياد مفتونا بجمالها.. لتتغير هيئتها فجأة وتلتهمه!!.. وكذلك أسطورة (الندّاهة)* الشهيرة في (مصر).. يبدو أن جميع الأساطير لها أساس حقيقي.

لقد فضلت الاحتفاظ بالقصة لنفسي وعدم كشفها لأهل (أبرار).. فهي غير مؤكدة ولا تثبت أي شيء.. عموما.. وبغض النظر عن مدى واقعية القصة.. أعتقد أن (أبرار) ملوثة من الداخل.. إنها تتنهد كثيرا.. وكثرة التناهيد تكشف سوء حياتك.. خاصة حين تكون في الليل.. إنني أحاول أن أعيد إليها توازنها من خلال المهدئات والجلسات النفسية المكثفة.. أحاول أيضا إقناعها بتجاوز ما حدث.. ومن ثم التطلّع إلى مستقبلها.. كونها صغيرة في السن.. وهناك الكثير في حياتها لتنجزه.. آمل أن أنجح في مساعدتها.. آمل ذلك حقا.

---

* (الندّاهة) من الأساطير الريفية الشهيرة في (مصر).. و(الندّاهة) هذه عبارة عن امرأة فاتنة تظهر في الليالي المظلمة وسط الحقول لتنادي شخصا معينا باسمه.. فيتبع ذلك الشخص صوتها ويلبي نداءها.. إلى أن يصل إليها.. حينها تتغير فجأة إلى هيئتها الحقيقية المتوحشة.. وتقتل الرجل.. أو تلتهمه.

لغز شقيقتي!!

يحكيها: شاب لم أسأله عن اسمه

أنظر إلى لهب الشمعة الصغيرة في مكتبي.. وأغنية (قارئة الفنجان) تنبعث من هاتفي حيث أستمع إليها للمرة المليون ربما!!.. ثم أنقل نظراتي إلى الساعة الرملية الصغيرة.. أعشق الساعات الرملية.. إنها تشعرني بحنين غريب لأزمان لم أعشها.. إنها الفترة المسائية في المستشفى.. الفترة التي أحمل خلالها نفسا راضية وصفاء ذهنيا كبيرا بسبب الهدوء الذي يعم المكان.. والذي تحدثت عنه مرارا وتكرارا في السابق.

أتأمل دخان الشاي الأخضر بشرود.. و(عبدالحليم حافظ) يتحدث عن الفتاة و(عيناها سبحان المعبود).. و(فمها المرسوم كالعنقود).. أرسم في مخيلتي صفاتها وصوتها وكل شيء عنها.. ثم.. أسمع تلك الطرقات الخفيفة على الباب.. فلا أرد.. إنهم يفتحون الباب دوما ولا يحتاجون إلى ردّي.. سواء الممرضات أو زملائي الأطباء.. أو حتى المرضى.

لكني بالطبع أضغط بسرعة على زر إنهاء الاستماع كوني لا أحب أن أكشف حياتي الخاصة لأحد.. وأتأهب في مكاني وأنا أتنحنح.. ليدخل ذلك الشاب المتوتر كما بدا لي.. ويلقي علي التحية بصوت مرتفع نسبيا.. ربما هو في منتصف الثلاثينيات من العمر.. إنه طويل القامة.. ذو تقسيم عضلي دقيق بارز من

ثيابه الغربية.. مما يدل على أنه مواظب على رفع الأثقال بصورة تثير الحسد.. وقد أرجع شعره إلى الوراء فبدا شديد الأناقة.. هل الشعور بالغيرة طبيعي حين تجد شابا أكثر وسامة منك ومنضبط بممارسة الرياضة أكثر منك؟!.. ربما.. وإلا لماذا أشعر بالضيق؟!.. عموما.. ستمر الأيام ويتزوج هو.. وسأظل أنا أعزبا منسيا نحيلا حزينا وحيدا كما هو حالي دوما.

رحبت به وطلبت منه الجلوس.. ثم سألته كالعادة عن سبب الزيارة.. و:

- إنني في مأزق يا دكتور ولا أعرف ما يجب فعله.. فالسر الذي أحمله يثقل كاهلي كثيرا.. وأريد أن أبوح به لأحد.. وبعد تفكير طويل.. فكرت باللجوء لطبيب نفسي.

كالعادة.. إنه يخلط بين الطبيب النفسي والاستشاري النفسي.. وهو أمر معتاد.. فكما أردد دائما.. الأول يعالج المرضى بالأدوية.. والثاني يعالجهم من خلال الاستماع إليهم عبر جلسات علاجية.. ويتحدث إليهم ويحثهم على مواجهة مشاكلهم والتغلب عليها.. عموما.. سأحاول ألا أُرجعه خائبا.. وسأرى إن كان باستطاعتي مساعدته.

نظرت إليه وأنا أشير إليه أن يكمل.. ليضيف:

- لقد بحثت كثيرا عبر شبكة (الإنترنت).. وعرفت أنه لا يحق لك أن تحاسبني أو تبلغ عني مهما كان الخطأ الذي ارتكبته... أليس كذلك؟!.

قلت مؤكدا ما أقوله وأردده باستمرار:

- صحيح تماما.. لا يحق للطبيب النفسي أن يكشف أسرار مرضاه.. والقانون لن يأخذ بكلامه لو فعل.. يحق له فقط أن يبلغ الشرطة لمنع حدوث جريمة مثلا.. ففي هذه الحالة يتوجب عليه إنقاذ ضحية محتملة.

هز رأسه بارتياح وكأنه اطمأن تماما.. ثم قال:

- حسنا يا دكتور.. المشكلة تتعلق بشقيقتي.. إنها مصابة بـ(التوحُّد)*.. وأنا الوصي الوحيد عليها.. فقد توفيت والدتي

---

* (التوحُّد) أو (الذاتوية) (Autism) مجموعة من الاضطرابات المعقدة في نمو الدماغ.. تظهر عادة على الطفل في سن مبكرة.. كالضعف الشديد والواضح في التفاعل الاجتماعي.. فنجده لا يملك أي مهارات لكسب الأصدقاء.. ولا يستجيب حين ينادي أحد باسمه.. ويقضي جل وقته وحيدا منعزلا عن الجميع.. ولا يسمح لأحد بمشاركته أنشطته.. مع افتقاده لبعض المهارات البديهية البسيطة.. كالإشارة إلى الأشياء.. والاقتراب من الآخرين من تلقاء نفسه.. والرد على الانفعالات البشرية المختلفة.. ويتميز المصاب بـ(التوحُّد) بالتكرار الملحوظ لأنماط سلوكية معينة.. مثل وجود نمط محدد في تناول الطعام.. مع التأخر في تطوّر حديثه.. علما بأن حالات (التوحُّد) كثيرة ومتنوعة.. فهي تشترك عادة في الصفات التي ذُكرت.. وتختلف في صفات أخرى.. كأن نجد لدى أحدهم قصورا شديدا في الفهم.. وآخر يقوم بإيذاء=

-رحمها الله- منذ سنوات بسبب إصابتها بمرض السرطان.. وتوفي والدي أيضا منذ حوالي سنتين بعد تراكم الأمراض عليه كحال معظم كبار السن.. ويجب أن أخبرك أنني لم أعمل بأي وظيفة من قبل.. إذ كان والدي يمتلك مجموعة من المحلات التجارية التي تدر عليه آلاف الدنانير شهريا.. وكان ينفق علينا بسخاء.. لذا لم أمنح دراستي الاهتمام المطلوب.. فلم أكمل دراستي الثانوية.. وبت أعيش معتمدا على أموال والدي فقط.. أما شقيقتي.. فقد نالت النصيب الأكبر من الدلال بسبب مرضها.. مما جعل والدي لا يرفض لها طلبا.

لم يقل ما يثير استغرابي.. إنه لا يختلف عن أغلبية الشباب الذين يعملون في وظائف حكومية وهم لا يعملون أصلا.. فسكت منتظرا منه أن يكمل.. ليقول:

=نفسه.. أو إيذاء غيره.. في حين نجد من يمتلك مهارات ذهنية مذهلة.. وقد أشارت نتائج بعض الدراسات الحديثة أن ثلثي المصابين بـ(التوحُّد) لا يتحسنون للأسف.. ويصبحون من ذوي الاحتياجات الخاصة.. ليعيشوا حياتهم معتمدين على أهلهم أو الجهات المختصة.. في حين أن قلة قليلة منهم من يعيش حياة طبيعية ومستقلة عند البلوغ.. إلى درجة أنه يكون قادرا على كسب رزقه بنفسه.. كما تستطيع فئة أخرى الوصول إلى وضع طبيعي أيضا.. لكن يفضل أن تكون تحت المراقبة.. وجدير بالذكر أن أسباب الإصابة بـ(التوحُّد) غير مؤكدة حتى الآن.. إلا أن العلم يرجح أن يكون للعامل الوراثي دور قوي.

المشكلة حدثت بعد وفاة والدي.. فـ. بصراحة.. قمت ببيع كل ممتلكاته لأنني لا أجيد إدارتها أو حتى متابعتها.. ووضعت كل أمواله في حسابي البنكي.. أي أنني أخذت نصيب شقيقتي من الورث.. وأهملتها تماما.. حتى أنني توقفت عن أخذها إلى المختصين كما كان يفعل والدي.. وبالمقابل.. ضاعفت راتب الخادمة كي تحرص على إيصال طعام شقيقتي إلى غرفتها ومراقبتها طوال الوقت.. أما أنا.. فكنت أقضي جل وقتي مع أصدقائي وأسافر أسابيع طويلة.. وأحيانا شهورا.. كان هدفي الاستمتاع بنصيب شقيقتي إلى أن أصرف آخر دينار منه.. ثم أبدأ مشروعا تجاريا بنصيبي.. أو أشتري بعض العقارات المؤجرة وأستفيد من إيجارها.. الخيارات دائما كثيرة ومتاحة طالما تملك المال.

سألته بشيء من الغِل الذي حاولت إخفاءه:

- حالات (التوحُّد) كثيرة.. فما هي صفات مرض شقيقتك بالضبط؟!.. ثم.. ألم تعترض على أفعالك تجاهها؟!.

قال بأسف:

- إنها صفات مرض (التوحُّد) التي نراها في الأفلام.. لا أعرف أكثر من ذلك.. لقد كانت حالتها تتحسن ببطء شديد.. لكن

بسبب الإهمال.. بدأت تسوء مرة أخرى رغم أن شقيقتي شديدة الذكاء.. وقد كان هذا واضحا من موهبتها المخيفة في الرسم.. أما من ناحية اعتراضها.. فبالطبع اعترضَت كثيرا.. وكانت تطلب الخروج بين الحين والآخر.. لكني كنت حازما معها.. بل ووصل الأمر إلى ضربها بقسوة أكثر من مرة.. والتأكيد عليها أن حياتها ستكون في غرفتها فحسب.. ووسيلة الترفيه الوحيدة لديها جهاز التلفاز وعليها أن تعتاد ذلك.. فقد حرمتها حتى من الهاتف.. كنت أخشى كثيرا أن تشكوني لأحدهم وتطالب بنصيبها.. فمع محام متمكن.. قد تسبب لي مشاكل كثيرة.

حاولت ابتلاع غضبي وأنا أطلب منه أن يكمل.. ثم:

- منذ حوالي 4 شهور.. وحين عدت إلى البيت بعد سهرة قضيتها مع مجموعة من الأصدقاء في شقتي التي استأجرتها سرا.. كانت الساعة تتجاوز الثانية فجرا.. أتذكر أنني مررت بجانب غرفة شقيقتي متجها إلى غرفتي.. لأسمع صوتا مرتفعا نسبيا.. وهو أمر غير مألوف.. فغالبا ما تكون شقيقتي هادئة جدا حين تنسحب إلى عالمها الذاتي كحال المصابين بـ(التوحُّد).. مما جعلني أتجه ناحية باب غرفتها

لأرهف السمع.. وأكتشف أنها تتحدث مع أحدهم!!.. مع شاب على وجه التحديد.. وتخبره بطريقة مكررة مزعجة -كحال المصابين بـ(التوحُّد) أيضا- عن حبها له وتعلقها الشديد به.. وأنه أجمل ما حدث لها في حياتها البائسة!!.. حسنا.. لا أنكر أنني استشطت غضبا.. وانفجرت بداخلي الغيرة.. ففتحت باب غرفتها المقفول دوما من الخارج.. واقتحمت المكان لأجدها وحيدة تحدق بالفراغ!!.. سألتها بغضب وقسوة عن هوية الشخص الذي تتحدث معه.. لكنها أنكرت كل شيء.. وقالت أنها كانت تتحدث مع نفسها!!.

سألته باستغراب:

- كيف تتحدث مع شاب؟!.. ألم تقل للتو أنها لا تملك هاتفا؟!.

رد وهو يعض على أسنانه:

- بالضبط.. وهذا ما جعلني أسألها بصرامة إن كان أحدهم ساعدها وجلب لها هاتفا مثلا؟!.. لكنها أنكرت تماما.. حتى أنني جئت بالخادمة وسألتها.. فأقسمت بدورها أنها لم تمنح شقيقتي أي هاتف أو وسيلة اتصال بالخارج..

لذا ظللت واقفا في مكاني أفكر بالكلام الذي سمعته منها لذلك الشاب المزعوم.. كلام رومانسي جدا غير معتاد من فتاة بحالتها.. هل تملك وسيلة تواصل أجهلها؟!.. هاتف ذكي أو جهاز (Ipad) وقد تمكنت من إخفائه بطريقة ما؟!.. ثم.. فكرت أن يكون أحدهم معها في الغرفة.. ربما دخل من الشباك واختبأ في مكان ما حال دخولي!!.. هذا غير وارد.. خاصة وأنني دخلت غرفتها بسرعة لم تسمح لشقيقتي بإخفاء شيء أصلا!!.. ورغم ذلك.. مشيت سريعا ناحية حمامها الخاص والمتصل بغرفتها لأتأكد.. كما قمت بتفتيش الدولاب وتحت السرير.. وبالفعل.. لم يكن هناك أحد.. كنت أخشى ذكاءها الشديد.. خاصة وأن المصاب بـ(التوحُّد) لا يتحدث كثيرا كما تعلم.. لكنه يعرف الكثير.. على الأقل في حالة شقيقتي.

حاولت جاهدا أن أسيطر على ملامح الضيق التي ظهرت على وجهي.. فهذا الحقير يشعر بإهانة لشرفه لأن شقيقته -ربما- على علاقة بشاب وهو قد عاد يومها من سهرة مع أصدقائه يعلم الله ما فعله خلالها.. بل وسرق قبلها نصيب شقيقته من الميراث وأساء معاملتها كما قال بنفسه!!!.. هل أقفز من

مكتبي وأضربه بحذائي؟!.. أحيانا تتمنى أن تمتلك أسلوب البلطجة هذا.. عموما.. لست هنا لإصدار الأحكام للأسف.. يجب أن أحتفظ بهدوء أعصابي وأطلب منه أن يكمل.. أو يرحل.. فهو لا يعاني مشكلة نفسية معينة.. لكني شعرت بشيء من الفضول لأعرف كيف ستنتهي القصة.. لذا قلت مؤمّنا على كلامه:

- كلامك صحيح عموما.. بعض المصابين بـ(التوحُّد) شديدو الذكاء.. مثل ذلك الشاب البريطاني الذي أخذ جولة فى طائرة مروحية لمدة لا تتعدى 20 دقيقة فى سماء مدينة (نيويورك).. للتعرف على أبرز معالمها والاستمتاع بجمالها.. فحفظ شكل المدينة.. ومن ثم راح يرسمها بتفاصيلها بكل دقة.. باستخدام قلم ولوحة بيضاء كبيرة.. معتمدا على ذاكرته فقط*!!.

نظر إلي مستغربا وقد بدا أنه يجهل تلك المعلومة.. ثم تدارك نفسه.. وأكمل:

- المهم أنني حاولت إقناع نفسي أن شقيقتي -ربما- كانت تتحدث مع نفسها.. لكن الأمر تكرر بعد بضعة أيام..

---

* يتحدث هنا عن (ستيفن ويلتشاير) (Stephen Wiltshire).. حيث انتشرت رسوماته في وسائل التواصل الاجتماعي وشاهدها الملايين.

حين سمعتها في غرفتها وهي تتحدث مع أحدهم وتخبره أنها تحبه.. وأنها تثق به كونه سينقذها من مأساتها!!.. ففتحتُ باب غرفتها ودخلت سريعا.. تماما كما حدث في المرة الأولى.. لأجدها وحيدة أيضا.. وعندما رأتني.. انفجرت باكية خوفا من عقابي.. إلا أنني لم أعنفها أو أقسُ عليها.. بل سألتها إن كانت تخفي سرا ما.. ويبدو أن هدوئي جعلها تعترف.. فقالت بتردد شديد ما أصاب جسدي بقشعريرة!!.

تصلبتُ في مكاني وأنا أنتظر منه ما سيقول.. و:

- لقد أخبرتني أنها شاهدت على إحدى البرامج التلفزيونية -وفي قناة مغمورة لا أذكر حتى اسمها- موضوع خاص عن التواصل مع الجن!!.. وكان أحدهم يتحدث عن طريقة فعالة لتحقيق ذلك.. وقد جربّت شقيقتي هذه الطريقة أكثر من مرة.. إلى أن نجحت.. فظهر لها شاب وسيم للغاية.. حيث بات يتواصل معها ويتحدث إليها باستمرار.. فلا يراه أو يسمعه سواها!!.

تحول كل غضبي تجاهه إلى الترقب والحذر.. ليكمل وهو يلتقط نفسا عميقا:

- لم أكن أعلم إن كانت شقيقتي صادقة في كلامها.. لكنك تعرف طبيعة الإنسان.. إنه يخشى الأشياء الغريبة حتى وإن لم يصدق بوجودها.. خاصة مع فتاة مصابة بالـ (التوحُّد) تجعلك في حالة تساؤل دائم عن مكنوناتها.. لكني لم آخذ كلامها محمل الجد آنذاك رغم أنها أخافتني بالفعل.. فطلبت منها ألا تكرر هذا الكلام أبدا.. إلا أن الأمور ساءت أكثر في الأيام التالية.. إذ كانت شقيقتي تبقي غرفتها مظلمة أغلب الأوقات.. حيث تجلس بطريقة غريبة وسط الغرفة وقد رفعت رأسها لتحدق في السقف.. فتصرخ فجأة.. وتتحدث مع الهواء.. كما بدأت تعتدي على الخادمة.. حتى أصابتها ذات مرة في صدرها بعد أن قذفتها بتحفة صغيرة ثقيلة الحجم.. بل وعضتها في فخذها مرة أخرى.. إلى أن باتت الخادمة نفسها تخشى دخول الغرفة والاعتناء بشقيقتي.. لم يكن هذا كل شيء.. فقد هاجمتني شقيقتي ذات مرة أيضا وعضتني بكل قوتها.. وقد تطلب الأمر الكثير من الصفع والركل كي أبعدها عني.

سألته مستغربا:

- ماذا عن أقاربكما؟!.. ألم يتدخل أحد؟!.

قال من دون أن ينظر إلي:

- كانوا يسألون عنا لفترة من الزمن بعد وفاة والدي.. ثم توقفوا عن ذلك.. وتباعدنا عن بعضنا شيئا فشيئا.. هكذا هو الحال مع معظم الأقارب في هذا الزمن كما تعلم.

اعتدل في جلسته.. ثم أكمل:

- لقد حاولت أخذها بنفسي إلى هنا منذ أسبوعين تقريبا.. لكني وجدت منها مقاومة شرسة عنيفة بطريقة غريبة لم أعهدها فيها من قبل.. فراحت تقذفني بكل ما طالته يدها في الغرفة وهي تصرخ بطريقة هستيرية.. وبدأت أتساءل -ولأول مرة- إن كانت قد أصيبت بمس من الجن فعليا.. خاصة حين أراها تتحدث مع الهواء.. على أنها تخاطب حبيبها المزعوم!!!.

سكت قليلا وهو يتنهد.. ليردف:

- هذا ما جعلني أتصل بالطوارئ وأخبرهم بحال شقيقتي.. والواقع أنهم لم يتأخروا كثيرا.. فقد جاء الطبيب برفقة ممرضَين.. حيث وجه لي بعض الأسئلة.. وعرف طبيعة علاقتي بشقيقتي.. مما جعله يطلب مني صراحة أن أنتظر في الخارج كي لا تستفزها رؤيتي.. ثم دخل إليها مع الممرضَين.. وسمعته يتحدث إليها بطريقة ودية..

ويخبرها أنه لا يريد لها الضرر.. وأن عليها أن تذهب معه للمستشفى.

سألته بلهفة وكأنني أتمنى أن أقابل شقيقته وأقف على حالتها:

- وهل وافقت؟!.

هز رأسه إيجابا وهو يقول:

- سمعتها وهي تسأل إن كان حبيبها سيأتي معها.. وإن كان ذهابها إلى المستشفى سيعني أنها ستكون بمأمن مني.. فكنت أسمع من الطبيب كلمات الاطمئنان والوعود.. إلى أن اقتنعَت.. وذهبَت معه.

لا أنكر أنني تنفست الصعداء.. لحسن الحظ أن الفتاة هنا الآن.. فقد ابتعدت عن شرور شقيقها على الأقل.. هذا الوغد لا يختلف عن الكثير من شبابنا.. إنه منفتح جدا في حياته الخاصة.. ومنغلق جدا حين يتعلق الأمر بشقيقته.. ويشعر أن الخطأ بالنسبة له حق مكتسب.. فقط لأنه ذكر!!!.

تجاوزت خواطري هذه.. وسألته بفضول:

- ما اسم شقيقتك؟!.. ربما تكون مريضتي ولم أعرف قصتها كاملة.. أو على الأقل سأعرف من يشرف على حالتها من زملائي الأطباء.

نظر إلي الشاب نظرة طويلة.. ثم قال آخر ما توقعته:

- لا يا دكتور.. شقيقتي ليست هنا!!!.

نظرت إليه مستفهما.. ليقول:

- حين خرجَت برفقة الطبيب والممرضَين.. شعرت بارتياح شديد كوني تخلصت من عبء ثقيل للغاية.. لكن.. بعد حوالي نصف الساعة.. وبعد أن عم البيت السكون.. فوجئت بأحدهم يضرب الجرس.. وإذا بها ممرضة.. وطبيب من مستشفى الأمراض النفسية.. قالا أنهما جاءا من أجل شقيقتي بناء على اتصالي الهاتفي!!!.

نظرت إليه بشيء من الغباء.. ليقول بحدة:

- دكتور.. ألم تفهم؟!.. الشخص الذي زارنا البيت وأخذ شقيقتي لم يكن الطبيب.. كان شخصا آخر لا أعرفه!!!.. لقد أوهمني مع زميليه أنهم من المستشفى وأنهم جاؤوا بناء على اتصالي.. لقد رحلت شقيقتي مع أشخاص مجهولين لا أعرفهم!!!.

صحت بذهول:

- يا إلهي.. هل يعقل؟!.. من يكونون هؤلاء؟!.

هز كتفيه كناية عن عدم معرفته.. وكأنه تعب من التفكير في هذا الأمر.. فسألته بلهفة:

- مهلا.. ألم ترَ السيارة التي أخذت شقيقتك؟!.

رد بحنق:

- لا.. لم أهتم بذلك.. خاصة بعد أن طلب مني الطبيب أن أبتعد عن أنظار شقيقتي ولا أقترب منها أبدا.. إن شقيقتي مفقودة منذ أسبوعين يا دكتور.. ولا أعرف أين ومع من ذهبت!!.. في البداية ظننت أن هذا مجرد خلل إداري من المستشفى حيث خرج طبيبان تلبية لنفس الاتصال.. لكني زرتكم يومها لأتأكد بنفسي.. واتضح لي أنها لم تأتِ إلى هنا أبدا!!.

هذا لا يصدق.. لا يصدق.. سألته بفضول:

- ماذا عن الشرطة؟!.

أجاب بتخاذل:

- بالطبع أبلغت الشرطة.. لكنهم لم يعثروا على شيء حتى الآن.

يا إلهي.. ما هذا اللغز؟!.. سألته وأنا أعود بكرسيي إلى الوراء:

- لماذا أنت هنا إذا؟!.

رد بعصبية:

- لأنني أحتاج من أتحدث إليه.. لا أستطيع كشف تفاصيل قصة كهذه لصديق أو قريب.. إنها تحوي أسرارا عائلية تدينني.. ففكرت باللجوء لمستشفى الطب النفسي والتحدث مع أحد الأطباء كوني جئت إلى هنا منذ أسبوعين كما قلت لك.. هذا ما أوحى لي للقيام بزيارة أخرى للفضفضة على الأقل.

لا أعتقد أن هذا سبب مجيئه.. السبب الحقيقي بوجهة نظري أنه يعاني الوسواس القهري.. فكل ظالم لديه وسواس قهري وحالة بارانويا دائمة.. لأنه يدرك في أعماقه أنه مخطئ.. هذه فطرة بشرية.

سكتنا طويلا.. ثم قلت بعد تفكير عميق:

- لا يوجد سوى احتمالين لما حدث.. الأول أن شقيقتك كانت على علاقة بشاب بالفعل وقد أحبها كثيرا.. وربما تواصلت معه من خلال هاتف ذكي حصلت عليه بوسيلة ما.. فوضعا تلك الخطة كي تهرب منك وتبقى تحت كنفه إلى الأبد.. والاحتمال الثاني.....

سكت ولم أكمل.. ويبدو أن الاحتمال الأول ضايقه كثيرا.. فسألني بحدة:

- ماذا عن الاحتمال الثاني؟!.

قلت بسخرية وقد شعرت بالسعادة لهزيمته:

- أن تكون شقيقتك تواصلت مع شيء مجهول من خارج عالمنا وأنها ذهبت معه إلى عالمه هو!!!.. لقد رأيت في حياتي ما يجعلني لا أستبعد أي احتمال.

توقعت منه الغضب واتهامي بالاستهزاء به لكلامي هذا.. لكنه بالمقابل اكتفى بالسكوت.. ليقول فجأة بصوت مرتجف:

- لا أنكر أنني شعرت أن الطبيب الذي زارنا غريب الأطوار.. بل مخيف الأطوار إن صح التعبير.. كان جامدا هادئا أنيقا جدا.. ثم أن الممرضَين اللذين جاءا برفقته كانا يسيران بطريقة آلية جافة لم تعجبني!!!.. لكني لم أنتبه إلى كل هذا حينها.. فمشكلة شقيقتي كانت تسيطر على تفكيري.

تنهدت وأنا أقول:

- لا أجد احتمالا ثالثا.. إلا لو عثر رجال الشرطة على شقيقتك.. حينها سينكشف كل شيء.

نظر إلي وكأنه يحثني على التفكير باحتمال ثالث.. فقررت أن أشفي غليلي على الأقل.. لأقول:

- أنت أنيق جدا كما تبدو لي.. لكنك مبعثر من الداخل!!.. لقد سرقت نصيب شقيقتك من الورث.. ودمرت حياتها.. كل هذا لم يمس شرفك بسوء.. لكن أن تكون لشقيقتك علاقة بشاب فإن هذا ما يجعلك بلا شرف؟!!.

لم يتوقع مني هذه الصراحة.. فبهت للحظات.. لأكمل محاولا مخاطبته بلغة العقل:

- أنت تضيع جل وقتك في اللهو.. وحين يستحوذ اللهو على تفكيرك.. تقل قيمتك.. فأنت في هذه الحالة تجعل لحاجاتك الغريزية أولوية على عقلك.. أي أنك تتشبه بالحيوان الذي تحركه حاجاته الغريزية.. والإنسان لديه عقل يقوده.. وهو أقوى وأسمى من حاجاته البيولوجية.. تذكر هذا دوما.. أما بخصوص شقيقتك.. فأنت كمن يصرخ أمام الجميع أنه لم يرتكب جريمة القتل.. لكنه يضحك في قرارة نفسه لأنه جعل الضحية تنتحر!!.. لقد انتزعت من شقيقتك كل شيء.. ولم تكتفِ بإشعال الحرب عليها.. بل خسرت الحرب أيضا.. أنا واثق أنها سعيدة الآن -بغض النظر عن مكانها- ولا أستغرب كراهيتها لك.. فالإنسان لا يسامح أبدا من كسَرَه متعمدا.

قال بجفاء:

- ربما قمت بأعمال مشينة.. لكن لا تحكم علي بالسوء.

قلت بحدة:

- وماذا عن حكمك أنت على نفسك؟!.. وهل يتطلب منك أن تفعل أكثر مما فعلته كي أحكم عليك بالسوء؟!

لم تعجبه حدتي وهجومي عليه.. فعقد حاجبيه ليخبرني بازدراء أن هذا ليس من شأني.. وأنه كان مخطئا بمجيئه إلي ظنا منه أن بإمكاني مساعدته.. هذا الشاب أحمق.. حتى في حماقته!!.. لذا أخبرته صراحة أن لا يوجد لدي ما أقوله.. وأن الزيارة انتهت.. فنهض من مكانه وغمغم بكلمة وداع سريعة أقرب إلى الشتيمة.. ليذهب إلى الجحيم.. إنه مريض كاره للنساء.. ويؤمن أن الأنثى أقل منه وأنقص منه بكل شيء.. ولا يمانع أبدا ممارسة العنف أو الإرهاب الفكري تجاهها.. إنه من هؤلاء الذين يحاكمون شقيقاتهم كل يوم.. ولم يحاكموا أنفسهم يوما.. هذا الأحمق (ميسوجيني)* مجسد.. ويفعل كل ما

---

* (ميسوجيني) (Misogyny) مصطلح شهير يعني (كراهية النساء).. ويوصف به كل من يحمل الأفكار التي ذكرها الدكتور في سياق القصة.. ويمتلئ المجتمع العربي للأسف بتلك النوعية من الرجال.. علما بأنه يقابل هذا المصطلح لفظة (ميساندري) (Misandry) وتعني (كراهية الرجال).

يفعله بعناد غريب.. والعناد لا علاقة له بقوة الشخصية.. فأحيانا كثيرة يرتبط بالجهل وضيق الأفق.

لكن يبقى السؤال.. ما الذي حدث لشقيقته بالضبط؟!.. أين ذهبت يا ترى؟!.. أكره كثيرا النهايات المفتوحة.. لكنه عالم الواقع على كل حال.. لا نملك له الأجوبة دوما.. أعتقد أن الفتاة كانت على علاقة حب بشاب تواصلت معه بطريقة أو بأخرى.. ربما بمساعدة الخادمة التي قررت الوقوف في صفها بعد أن رأت ظلم شقيقها لها.. ويبدو أن حبيبها هذا خطط لها للهروب معه وتخليصها من معاناتها.. فأبلغته -حال اتصال شقيقها بالمستشفى- أن يأتي قبل وصول الطبيب الحقيقي.. ربما كانوا جميعا مستعدين لهذه الخدعة.

لكن.. ماذا عن إصابات الخادمة التي تسببت بها شقيقته؟!.. هل كانت مفتعلة لتكتمل أركان الخدعة؟!.. أم أن الإصابات لا وجود لها أصلا وقد كذبت الخادمة؟!.. خاصة وأن أماكن الإصابات يفترض أن تكون في جسدها.. ومن غير اللائق أن يراها هذا الوغد.. فصدقها وأخذ بكلامها بعد أن رأى بنفسه ثورة شقيقته وعنفها؟!.. لكن.. ألا تخشى الفتاة أن يعثر عليها شقيقها؟!..ألا تخشى عقابه؟!.. أظنها لم تعد تخشاه بعد أن فقد الألم هيبته.. بسبب التكرار!!.

وإذا كانوا يقولون (اتق شر من أحسنت إليه).. فأنا أقول (اتق شر من لا يملك ما يخسره).. فشقيقته لم تكن تملك ما تخسره.. وقررت خوض هذه المغامرة علها تتمكن من الهرب.. وقد نجحت حتى الآن.

أما احتمال رحيل شقيقته مع الجن.. فقد قلته بسخرية.. لكن شقيقها أخافني قليلا حين تحدث عن غرابة أطوار الطبيب مع الممرضَين.. يبقى هذا التفسير سخيفا.. أو.. أتمنى أن يكون سخيفا كي لا أصاب بالكوابيس.. عموما.. القضية معلّقة إلى أن تظهر الفتاة من تلقاء نفسها.. أو يستدل رجال الشرطة إليها وإلى حبيبها الذي سينتهي مستقبله بسبب ما فعله.. وإلا.. ستظل لغزا إلى أجل غير مسمى.. لغز شقيقته!!.

التلاعُب.. في الواقع!!

تحكيها: (غلا)

العمر: 23 سنة

حقا إنها الوظيفة الوحيدة التي لا تملك ترف التخاذل في ممارستها حين لا تكون بمزاج رائق.. وهذه قد تكون أبرز متاعب مهنة الطب.. أما حين يتعلق الأمر بالطب النفسي فالأمر أسوأ وأصعب.. خاصة حين يأتيك من يظن أنك ستنقذ حياته وتجعله إنسانا آخر في نصف ساعة!!.. ثم ينظر إليك نظرات يائسة تحمل في طياتها الخذلان.. تلك النظرات التي أراها كل يوم تقريبا عندما أضع من يزورني أمام الأمر الواقع وأخبره أن الطب النفسي ليس سحرا.. مشكلة الطب النفسي أنه يتطلب بعض المثابرة من المريض وإجراء بعض التغييرات في نمط حياته.. وليس فقط الاعتماد على الدواء كما يحدث مع الأمراض العضوية الأخرى.

تمر الخواطر في ذهني أثناء قيادتي للسيارة متجها إلى المستشفى قبل بدء نوبتي المسائية.. وأستمع في نفس الوقت لموسيقى هادئة جدا تذيب القلوب.. قبل أن يرن جرس هاتفي.. إنه اتصال من شقيقي الأكبر.. وهذا يعني أنه سيبلغني بمصيبة.. والمصيبة في قاموسي الشخصي أن يكون هناك حفل زفاف علي الذهاب إليه.. أو واجب اجتماعي علي أن أؤديه.. وبالفعل.. أخبرني شقيقي بطريقة حازمة أن غدا حفل زفاف أحد أبناء

عمومتي وأن علي المجيء.. مع التلميح أنه وضع بطاقة الدعوة الإلكترونية في (قروب) التواصل الاجتماعي الخاص بالعائلة.. لكني لم أرَ الدعوة -كعادتي- كوني لا أتابع ما يحدث في ذلك (القروب) أصلا على حد قوله.

طبعا كلامه صحيح تماما.. فهذه الواجبات الاجتماعية والارتباطات العائلية المزدحمة كانت من أسباب الانتقال للإقامة وحيدا.. إلا أنها ما تزال تطاردني كما ترون.. وما زلت أيضا أجد عدم الرضا في عيون الجميع رغم أنني أؤدي تلك الواجبات الاجتماعية على قدر المستطاع.. إنهم لن يستسيغوا أبدا فكرة أن يسكن شاب أعزب وحيدا.. حتى لو كان طبيبا وعمره تجاوز الـ 40.. فيأسفون لحالي.. ويدعون لي بالهداية باستمرار.. وكأنني أصحو وأنام وبيدي زجاجة خمر!!!.. مشكلتي أنني لا أشعر بالانتماء لأحد.. وأعشق الاستقلالية.. وأجد أن المرء يبدع ويكون أفضل بعيدا عن الجماعة -أيا كانت- لكنهم لا يفهمون كلامي.. ولن يفهموا للأسف!!. أما شقيقاتي.. فلا يتوقفن عن التحدث عن قريباتي.. أو صديقاتهن رائعات الجمال.. وكل منهن لا ينقصها سوى زوج.. ثم يصبن بخيبة الأمل حين يجدنني أسكت وأحاول أن أغير

دفة الحديث.. لماذا لا أتزوج؟!!.. شرحت الأسباب أكثر من مرة.. وعلى مدى الأجزاء السابقة من مذكراتي.. لكن أضيف وأقول أنني أعشق الاختلاف.. ولا أريد أن أكون ككل الناس.. ثم أنني أحب أن أكتمل بنفسي.. لا بشخص آخر.

أنفث الهواء من صدري على سبيل الملل بعد أن ركنت سيارتي.. ثم.. أسير بخطوات واثقة إلى مكتبي عبر ممرات المستشفى الخالية تماما كما هو الحال في النوبات المسائية.. لأجد في الاستراحة فتاة تجلس وحيدة حتى بدا وجودها غريبا!!.. كانت تتأمل العالم.. وأنا أتأملها هي.. إنها نحيلة.. بيضاء البشرة.. قصيرة القامة.. شعرها قصير إلى درجة ملحوظة.. لكن هذا جعلها فاتنة.. وقد كانت تهز ساقيها بقوة كناية عن توترها.. و.. ما إن رأتني.. حتى نهضت وهي تخبرني بكلمات سريعة أن طبيب النوبة السابقة خرج منذ قليل.. وأنه لن يستقبل أي حالات على حد قوله.. حسنا.. لا بأس.. لم أتأخر عموما.. إنني الطبيب التالي.. فهذا موعد نوبتي.. لذا رحبت بها بكلمات سريعة وأنا أطلب منها أن تتبعني إلى مكتبي.

جلسَت على الكرسي المقابل لمكتبي.. في حين انشغلت قليلا وأنا أضع أشيائي الخاصة في أحد الأدراج.. ثم أدخلت سلك

الشاحن في هاتفي.. لأتفرغ للفتاة بعد ذلك.. فنظرت إليها مبتسما.. وسألتها عن سبب زيارتها.. لترد بصوت متوتر:

- دكتور.. إنني أعمل في مركز الاتصال التابع لأحد البنوك.. ويفترض أن أكون في نوبتي المسائية الآن كما يظن أفراد عائلتي.. لكني استأذنت من عملي واخترت المجيء إلى هنا في هذا الوقت لأتجنب ازدحام المراجعين في الفترات الصباحية.. لا أريد أن يراني أحد.

لا يوجد جديد.. نفس العبارة أسمعها مرارا وتكرارا.. فنظرت إلى الفتاة منتظرا منها أن تكمل.. ثم:

- كيف أصف لك مشكلتي؟!.. هل ستصدقني لو أخبرتك أنني بت فجأة لا أتصرف على طبيعتي؟!.. لقد تغيرت في زمن قياسي وتحولت إلى فتاة مختلفة.. هناك أمور مخيفة ستحدث.. وسأتسبب بها أنا بنفسي!!.

قلت مباشرة:

- هناك سيناريوهات كثيرة تمر في عقولنا.. لكن غالبا لا يحدث منها شيء في عالم الواقع.. حاولي التفكير بـ100 موضوع أثار قلقك ومخاوفك في الماضي.. ستجدين أن على الأرجح 99 منها لم يحدث أصلا!!.. والإنسان كي يشعر

بالقلق أو الخوف.. عليه أن يصنع خيالا سيئا للقادم.. (خيال) سيئ.. وليس (حقيقة) سيئة.

شعرَت بالإعجاب كما يبدو لكلماتي المتزنة.. لكنها هزت رأسها نفيا وهي ترد:

- ما تقوله لا علاقة له بمجيئي إليك.. فمشكلتي لا علاقة لها بالقلق.. مشكلتي أنني أصبحت فجأة فتاة شريرة!!!.. إنني أنوي ارتكاب أفعال مرعبة يا دكتور.. صدقني.

ابتسمت لا شعوريا.. لا يمكن أن أتخيل أن هذا الملاك يقوم بأعمال شريرة.. فقلت:

- كلمة (شريرة) قاسية جدا.. لا تظلمي نفسك.

ردت بحسرة:

- كيف تفسر أن أتصل بالشاب الذي تربطني به قصة حب منذ حوالي 4 سنوات.. لأخبره أنني أرغب بإنهاء علاقتنا.. وأنني على علاقة بشاب آخر؟!.. فعلت هذا على سبيل التلاعب بمشاعره وإهانته فقط!!.. لا تسألني لماذا.. المسكين يحاول التواصل معي منذ شهر تقريبا ويرسل لي الرسائل الهاتفية باستمرار ليفهم سبب تصرفي هذا.. بل



ويقسم أنه يشعر وكأنه لم يعد يعرفني.. المحزن أنني أرد عليه بسخرية وأبذل كل جهدي لأجعله يكرهني.. هل ما زلت أحبه؟!.. لا.. لقد كرهته فجأة ولا أفهم السبب.. وكيف تفسر أيضا أن أتصل بصديقاتي وأصنع الدسائس بينهن؟!.. وربما لن تصدق لو أخبرتك أنني مارست تلك اللعبة الشهيرة -والحقيرة بنفس الوقت- حين وضعت بعض مجوهراتي في دولاب الخادمة ثم اتهمتها بالسرقة!!.

قلت مصدوما:

- لماذا تفعلين كل هذا؟!.

قالت بعصبية وكأنها طرحت نفس السؤال على نفسها عشرات المرات ولم تعثر على الإجابة:

- لا أعرف.. لا أعرف.. لهذا أنا هنا!!.. لم أكن كذلك أبدا.. لكني بت أشعر مؤخرا بدافع غريب يقودني لارتكاب أفعال شريرة.. المؤلم أنني سأرتكب خلال الأيام القادمة حماقة أخرى.. سأرسل رسالة من بريد الكتروني مجهول لزوجة شقيقي وأخبرها أنه على علاقة غرامية بفتاة أخرى!!.. وبعد حوالي شهر من الآن.. يفترض أن أسافر مع صديقتي إلى دولة خليجية.. لقد خططت أن أتلف جواز

سفرها كي أضعها في ورطة هناك!!!.. مجرد شعور مريض ينتابني ويسيطر علي لارتكاب هذه الأشياء.. وأكثر ما يخيفني يا دكتور.. رغبتي بشراء حيوانات لطيفة حديثة الولادة ومن ثم تعذيبها حتى الموت!!!.

لم أرد عليها.. بل سكت طويلا وعقلي منهمك بالتفكير في أمر ما.. ويبدو أنها لم تحتمل صمتي المريب.. لتصيح بحدة:

- لماذا لا ترد؟!.. أريدك أن تمنعني من كل ما سأقوم به من أهوال.. حتى لو حبستني في المستشفى واعتبرتني مريضة نفسية!!!.. أنا أشكل خطرا على حياة الناس.. ألا تفهم؟!.. إن أيامي القادمة تبدو ككتاب مفتوح بالنسبة لي.

نعم.. نعم.. كتاب مفتوح.. عبارتها هذه ذكرتني بما أردت تذكّره.. لقد كدت أقسم أن هناك شيئا مألوفا في كل ما تقوله.. حينها فقط.. لانت ملامحي.. وابتسمت ساخرا.. لأقول:

- أي لعبة تلك التي تمارسينها؟!.. هل أنت هنا للعبث؟!.

نظرت إلي متسائلة.. فقلت بذات الابتسامة الساخرة:

- دعيني أخمّن ما ستفعلينه أيضا.. تريدين أن تزوري شقيقك أو شقيقتك.. وتستغلي غياب انتباههما لتقتلي أحد أطفالهما.. ستقومين بخنق الطفل حتى الموت.. على

أن تجعلي الأمر يبدو كحادث عرضي.. كما تريدين الإيقاع برجل أعمال شهير واستغلاله ماديا.. أليس كذلك؟!.

نهضت من مكانها وقد اتسعت عيناها على آخرهما.. فسألتني بذهول:

- يا إلهي.. من أنت بالضبط؟!.. كيف عرفت؟!.. هذا بالفعل ما كنت أنوي فعله؟!.

أجبتها ساخرا:

- عزيزتي.. ما قلتهِ مسروق بالكامل من رواية.. لسوء حظك أنني اشتريتها بالصدفة من معرض الكتاب بعد إلحاح شديد من الكاتبة التي كانت متواجدة هناك على سبيل التسويق.. وقد قرأت الرواية منذ مدة.. إنها سخيفة وسطحية.. وغير منطقي إطلاقا كم الدموية الموجود فيها.

نظرت إلي بألم يشوبه الذهول.. لا أفهم لماذا تفعل كل هذا!!.. هل تعلم أنني لست متزوجا وتريد اختلاق أي قصة لإيقاعي في حبائلها؟!.. أنا لست (توم كروز) في النهاية.. لكن.. قد تفعل الفتاة أي شيء من أجل رجل أعجبت به.

المهم أنها سألتني بعصبية:

- هل تظن أنني قرأت رواية.. ثم قررت المجيء إليك لتمثيلها أمامك؟!.. وهل تظن أنني سأترك عملي وأزور المستشفى في هذا الوقت المتأخر للعبث؟!.

قلت بلا مبالاة:

- لا أعرف دوافعك.. لكن كل ما تقولينه مسروق حرفيا من الرواية.. فتاة بسيطة يستحوذ عليها الشر بشكل مفاجئ ودون سبب.. ثم ترتكب كل الأفعال التي ذكرتها.

ساد صمت طويل.. الفتاة تنظر إلى السقف.. ثم إلى الأرض.. كأنها تبحث عن وسيلة لإقناعي بصدق كلامها.. أما أنا.. فقد التفت إلى جهاز الكمبيوتر بإشارة واضحة أن ليس لدي ما أضيفه.. مما جعلها تنهض وتقول بأسف:

- ظننت الأطباء النفسيين مختلفين ويملكون عقولهم.. لكنك لا تختلف عن بقية الناس.. لستَ سوى مخزن لأفكار الآخرين!!.

إنني أتعرض لهذه الإهانات بين الحين والآخر.. وهذه نتيجة طبيعية لمن يلتقي بعشرات الناس يوميا ومن شتّى الخلفيات

الاجتماعية والثقافية.. كنت أغضب في الماضي.. ثم وجدت أنني أرهق نفسي من أجل أناس لن أراهم غالبا سوى مرة واحدة في حياتي.

اليوم التالي كان بائسا بكل المقاييس بالنسبة لي.. إذ تجهزت للذهاب إلى حفل الزفاف في منطقة (العديلية) مرتديا بذلة رسمية كوني لا أرتدي الزي الوطني أبدا.. إنها العادة لا أكثر.. كنت أقود سيارتي وأنا أشعر بحزن اعتدته.. إنه الحزن الوجودي.. أي أنه ليس حزنا بسبب أمر محدد.. بل بسبب وجودي في هذا العالم فحسب*.

مشكلة الحزن أنه يجعلك حقيقيا جدا.. فالحزين لا ينافق ولا يتلون.. حتى عضلات وجهه تمنعه من الابتسام.. ورغم ذلك.. علي أن أجامل.. هذا ما قلته لنفسي وأنا أدخل قاعة الأفراح بمزاج سيئ للغاية.. خاصة مع تلك الفرقة الشعبية التي جاء بها أبناء عمومتي.. والتي حولت قاعة الأفراح إلى مكان مناسب للإصابة بالصمم!!.. بعضهم يرقص بجنون.. وبطريقة مخجلة بحق.. دائما تسوء الأخلاق في الزحام.. لهذا أتجنبه!!.

---

* (الحزن الوجودي) ترجمة للفظة الألمانية (Weltschmerz) وتعني حرفيا (ألم العالم) (world-Pain).. حيث صاغ هذا المصطلح الكاتب الألماني (جين بول) (Jean Paul) الذي اشتهر بكتاباته الرومانسية في القرن الـ 18 والـ 19.

استنزاف عقلي وإرهاق جسدي.. وكأنك تبذل جهدا كبيرا رغم أنك لم تفعل أي شيء.. أين الخطأ في كل ما أراه؟!.. أطرح السؤال على نفسي.. فأكتشف أن وجودي بينهم هو الخطأ!!.. أنا لا أريد تغيير المجتمع.. بل التخلص منه!!.. لكني أتجاوز كل هذا وأذهب لألقي التحية على أقاربي.. لا أعرف لماذا تذكرت أيام الدراسة.. كنت أكره اللحظة التي أعود فيها من الحمام أثناء الحصة الدراسية.. لأجد جميع زملائي في الفصل يحدقون بي وأنا عائد إلى كرسيي من دون أن أفهم السبب!!.

أصافح عمي قبل أن أقبل جبينه.. في حين أسمعه يهمس:

- متى سأقف بجوارك في حفل زفافك؟!.

فأبتسم ولا أرد.. مؤلم أن تنتمي إلى عائلة تحلم دوما بالرحيل عنها.. أذهب بعدها لألقي التحية على العريس ثم بقية أفراد العائلة.. وكل منهم يسأل عن حالي بلهفة مصطنعة.. وكأنهم يبحثون عني طوال السنوات الماضية وقد عثروا علي للتو!!.. كانوا سعداء للغاية.. لا.. ليست سعادة.. لكنه الشعور بالأمان.. فجميعهم يبحثون عن الأمان في التجمعات.. بل أن الورطة الجماعية -إن حدثت- تشعرك بالأمان كذلك كونك لست وحيدا.. لهذا وُجدت كل التجمعات بوجهة نظري.

أذهب بعدها لأجلس وحيدا كقبر نبتت عليه الأعشاب.. أو تمثال من الشمع في متحف مزدحم بالزوار.. أنظر حولي.. أعرف الكثير من الموجودين بطبيعة الحال.. إلا أن كثرتهم كالقش.. لن ينفعني أحد منهم حين أغرق.. فأتجاوزهم بنظري وأنظر إلى الفراغ.. أشعر أنني بعيد.. بعيد جدا!!.. والأناقة حاضرة لدى الجميع بالطبع.. لكن معظمهم يفتقر لأناقة الكلام.

المعذرة.. أنا لا أبحث هنا عن المشاكل.. أنا فقط أنتبه لتفاصيل لا ينتبهون لها!!.. المشكلة أنهم يريدونك أن تكون نسخة منهم وإلا سيلفظونك.. ليتني أستطيع أن أصرخ وأخبرهم بما أراه فيهم.. للأسف الحقيقة لا تقال.. فقدرها أن تبقى في رؤوسنا فقط.. ثم:

- كيف حالك يا دكتور؟!.

أحد أبناء عمومتي يجلس بجانبي وهو يصرخ بكل قوته كي يصلني صوته.. فأجيبه بكلمات سريعة لم يسمعها على الأرجح.. لكنه اكتفى بها.. لنتبادل الحديث بصوت مرتفع.. إلى أن توقفت الفرقة الغنائية لحسن الحظ.. حينها فقط سألني ابن عمي بشيء من المرح:

- متى ستتزوج؟!.. إنني أصغر منك بحوالي 10 سنوات وقد تزوجت وأنجبت.

فأنسى الفارق الثقافي بيننا وأقول:

- الكثير من الزيجات تستمر لأسباب منطقية.. وليست عاطفية.. إذ يؤدي كل طرف واجبه تجاه أطفاله من مسؤوليات.. لكن الحب يكون غائبا.. هذا حال كل زواج في العالم!!!.

إجابتي غير مقنعة بالنسبة له بكل تأكيد.. بدا هذا واضحا على ملامحه.. سكتنا قليلا.. ثم اعتدل فجأة في جلسته.. ليقول بجدية يشوبها بعض الاعتذار:

- سأتحدث إليك بصراحة.. وأعرف أنك لن تغضب مني كوني ابن عمك في النهاية.. مشكلتك يا دكتور أنك مغرور.. فتظن أنك أفضل من بقية الناس.. لهذا لا تريد أن تتزوج.. ولهذا أيضا لا تزور ملتقيات العائلة!!.

المشكلة أنني لا أمنحهم أكبر من حجمهم.. فيظنّونه تكبّرا!!!.. كما أنني أعاملهم بسطحية لعلمي أن العُمق لا ينفع معهم.. لكني لست مغرورا أبدا.. إنني فقط لا أنظر للمجتمع بجدية..

ولا أفهم السبب.. ليبتسم الأحمق بفخر بعد أن رآني غارقا في خواطري.. وقد ظن أنه عرف السر واكتشف حقيقتي.. إنه لا يختلف عنهم.. يعيش تحت (تأثير رينجلمان)* من دون أن يعلم.

عموما.. كانت ساعة بائسة.. لم أنتهِ منها إلا مع ذلك الاتصال الذي وصلني من رقم غير مسجل في ذاكرة هاتفي.. الهاتف يرن بإلحاح.. إنها فرصة رائعة للخروج.. فالأقربون أولى بالرحيل أحيانا!!.. لأنهض من مكاني وأخرج من ذلك الكابوس الذي يطلقون عليه اسم (حفل زفاف) من دون أن أودع أحد.. ثم أجبت على الاتصال وأنا في طريقي إلى سيارتي.. وإذ بصوت أنثوي رقيق يخبرني بألم:

---

* (تأثير رينجلمان) (Ringelmann Eeffect) ويطلق عليه أيضا مصطلح (ظاهرة التكاسل الاجتماعي).. وهي ظاهرة اجتماعية يكون فيها أفراد الجماعة أقل عطاء وإنتاجية كلما زاد عدد أفرادها.. وقد اكتشف تلك الظاهرة المهندس الفرنسي (ماكس رينجلمان) (Max Ringelmann) عام 1913.. حين لاحظ أن قوة حصانين يجران عربة معا.. ليست ضعف قوة حصان واحد يجر نفس العربة.. ثم قام بإجراء تجربة على البشر من خلال لعبة شد الحبل.. حيث تبين له وجود علاقة عكسية بين حجم الجماعة وحجم مساهمة أفرادها في إنجاز العمل.. فكلما قل عددهم.. أنجزوا العمل بصورة أفضل.. ويعود السبب إلى أن توزيع المسؤولية على عدد كبير يُشعر بعض الأفراد أنّهم غير مسؤولين عن نتيجة جهودهم.. وأنّ الأمر سيسير من دونهم.. وهناك سبب غياب الحافز الفرديّ.. فلو بذل أحدهم جهدا كبيرا لإنجاز عمل ما.. لن يظهر للناس مدى تميزه وحجم مساهمته.

- دكتور.. أحتاجك.. أرجوك.. أريد أن أقابلك الآن!!.

سألت المتصلة عن هويتها بشيء من الاستغراب.. لتخبرني أنها (غلا)!!.. كانت المرة الأولى التي تخبرني باسمها.. وقد تطلب الأمر لحظات قليلة كي تذكرني بنفسها.. فقلت ببرود:

- المعذرة.. لدي أعمال كثيرة.. ولا وقت لدي لـ......

قاطعتني بعصبية:

- اسمعني أرجوك.. لقد اشتريت الرواية التي أخبرتني عنها وقرأتها بالكامل.. أنت محق تماما.. إنني أطبق كل ما فيها حرفيا.. صدقني لم أعرف تلك المعلومة سوى منك.. ما تفسير هذا؟!.. أنا خائفة.. فالقادم أسوأ!!.

سألتها بحدة:

- مهلا.. كيف حصلت على رقمي؟!.

غمغمت باعتذار:

- من أحد موظفي المستشفى.. وقد أقسمت له ألا أخبرك باسمه.

بالطبع.. هؤلاء الحمقى سيمنحونها أرقام هواتفهم أيضا لو تطلب الأمر.. فمن يرد طلب لفتاة كهذه.. المهم أنني قلت بحدة:

- هل تتوقعين مني تصديقك؟!.. ما قلتِه لا يمكن أن يحدث.. ولا حتى في عالم الخيال.

ردت برجاء:

- دكتور.. أرجوك أن تتعامل معي بجدية.. أتوسل إليك.. صدقني أنا لا أفعل ما أفعله لأضيع وقتك.. بل لأنني أشعر بالرعب!!!.. وحالتي النفسية تزداد سوءا.. لقد حصلت على إجازة طبية لأنني مشتتة الذهن.. إنني لم آكل شيئا منذ الأمس بسبب قلقي مما سأفعله لاحقا.. أشعر أنني مسلوبة الإرادة.. ولا أعرف كيف أوقف نفسي عن ارتكاب مثل هذه الأفعال الشريرة.. سأقتل طفلا بريئا خلال الأيام القادمة.. والأسوأ أنه ابن شقيقي.. هل تتخيل ذلك؟!.

حسنا.. يجب أن أعترف هنا أنني تخاذلت قليلا.. خاصة وأنني مررت بقصص أغرب من هذه بكثير في السابق.. وبات عقلي متقبلا لأي حوادث خارجة عن المألوف.. لذا تنهدت بعمق.. ثم قلت للفتاة:

- إنني في منطقة (العديلية).. من الممكن أن نتقابل في مقهى (Brush).. إنه هادئ ويمكننا أن نتحدث هناك.

وكأنها كانت تنتظر مني هذا العرض.. إذ أخبرتني أنها مستعدة للقائي الآن.. والأمر يتعلق فقط بمسافة الطريق كونها تسكن منطقة (جابر الأحمد) الحديثة.. حسنا.. لا بأس.. سأنتظر.. أخبرتها

بذلك وأنا أتجه إلى المقهى.. حيث جلست هناك أعبث في هاتفي وأتابع -عبر وسائل التواصل الاجتماعي- المشاريع الضخمة التي تنجز في (الكويت) حاليا والتي تجعلني أشعر بالفخر بالفعل.. إن بلدي ينفض الغبار عن نفسه ويتحول بسرعة مذهلة إلى بلد جديد.. مستشفيات ومدارس وشوارع وجسور.. ومشاريع تنموية ضخمة لم نشهد مثلها من قبل.. جميل أن نرى هذه الانطلاقة التي انتظرناها لسنوات.. خاصة وأن....

- مرحبا دكتور!!.

إنها هي.. وقد بدت مستغربة كوني أرتدي بذلة.. فابتسمت وأنا أخبرها أنني كنت في حفل زفاف.. ثم طلبت منها الجلوس وطلبت لها قهوة.. لتدخل في صلب الموضوع مباشرة وتقول:

- أنا لا أفهم لماذا أرتكب كل الحماقات التي ترتكبها بطلة الرواية.. والغريب أن الشر الذي تمارسه مبتذل فعلا.. لكني أمارسه حرفيا.. لقد راجعت حياتي بأكملها ولم أجد ما يبرر ذلك التغيير المفاجئ الذي أمرُّ به.. فما الذي يحدث لي بالضبط؟!!.

سألتها مفكرا:

- هل قرأت الرواية كاملة؟!.

ردت وهي تنفث الهواء الحار من صدرها:

- نعم.. المصيبة أن هناك جزءا ثانيا للرواية أعلنت المؤلفة عن صدوره قريبا في وسائل التواصل الاجتماعي.. ولا أعرف إن كان سيترك أي تأثير علي.. ولا أعرف متى سيكون التأثير فعالا أصلا؟!.. أثناء كتابة المؤلفة للرواية؟!.. أم بعد صدورها؟!.. أعرف أنك لا تصدق حرفا من كلامي.. لكني بحثت كثيرا عبر شبكة (الإنترنت).. ووجدت أن شيئا كهذا قد حدث في الماضي مع رواية قديمة تحمل اسم (حطام سفينة تيتان).. حيث تحققت أحداثها حرفيا بعد مرور عدة سنوات من صدورها*.. ولم يفهم أحد السبب حتى الآن!!.

---

* (حطام السفينة تيتان) (The Wreck of the Titan) رواية خيالية لكاتب انجليزي مغمور يدعى (مورغان روبرتسون) (Morgan Robertson) قام بتأليفها عام 1898.. حيث تحدث فيها عن تعرض سفينة عملاقة تدعى (تيتان) للغرق في أولى رحلاتها عبر المحيط الأطلسي.. حين أبحرت من ميناء (ساوث هامبتون) الإنجليزي إلى ميناء (نيويورك).. وقد كانت (تيتان) تحمل على متنها 2500 مسافر.. إلا أنها اصطدمت بجبل جليدي في قلب المحيط مما أدى إلى غرقها.. ولم تكن تحمل سوى 24 قاربا للنجاة لثقة صانعيها بقوتها واستحالة غرقها.. الأمر الذي أدى إلى غرق أغلب ركابها.. وكما ترون فإن الرواية قريبة جدا -وإلى درجة التطابق- من حادثة سفينة (تيتانيك) الشهيرة التي تعرضت للغرق بعد تلك الرواية بحوالي 14 سنة.. وقد تهافت الجميع على شراء الرواية بعد بروز هذا التشابه بينها وما جرى على أرض الواقع.. ونسب البعض إلى كاتبها قدرات خارقة كونه تمكن من استقراء المستقبل.. ولا يوجد أي تفسير حتى الآن لهذا التطابق الغريب بين الرواية والقصة الحقيقية سوى عامل الصدفة.

أعرف الرواية التي تتحدث عنها.. لكني لا أملك لها تفسيرا سوى عامل الصدفة.. فتجاهلت الرد على هذه النقطة.. ثم.. خطرت في ذهني فكرة قد تكون فعالة.. لأقول باهتمام:

- لماذا لا تتواصلين مع مؤلفة الرواية وتطلبين لقاءها؟!.. ربما نصل إلى شيء.

سكتت للحظة وكأن فكرتي أعجبتها.. ثم قالت بحماس:

- لا أعرف جدوى ذلك.. لكن يمكنني أن أحاول.. هل تذهب معي؟!.

قلت معتذرا:

- هذا ليس عملي.. ثم أنك لن تكوني بحاجة إلي أصلا.. فقط حاولي الوصول إلى المؤلفة.. وتحدثي معها عما يجري.

صمتت قليلا.. ثم نهضت من مكانها وهي تشكرني ببرود من دون أن تشرب قهوتها.. في حين ظللت أنظر إليها وهي تسير عائدة إلى سيارتها.. لأنقل بصري إلى شاشة هاتفي.. لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن أنهض بدوري عائدا إلى شقتي محاولا الاستمتاع بوقت الفراغ قبل النوم.. فتلك اللحظات مقدسة بالنسبة لي.. أشاهد فيها فيلما.. أو مسلسلا.. أو ربما

أقرأ قليلا.. إن وحدتي تبدأ حين أغادر شقتي!!.. لهذا أسعد دوما بالعودة إليها.

كم مضى على هذه الحادثة؟!.. أكثر من شهر.. نسيت خلالها كل ما يتعلق بـ(غلا).. إلى أن حدث ذلك التطور الخطير.. حين زارتني في المستشفى فتاة بدت وكأنها في أواخر العشرينيات من العمر.. ترتدي الحجاب مع ثياب عصرية.. وقد طلبت لقائي للأهمية.. هذا معتاد.. فكل إنسان يرى مشاكله وكأنها مشاكل الكون ذاته.. ولا ألومهم على ذلك بالطبع.. أحاول أن أتذكر إن كنت قد شاهدت تلك الفتاة من قبل.. لكنها عرفتني بنفسها بملامح جامدة:

- مرحبا دكتور.. أنا الكاتبة (.......) مؤلفة رواية (.......).

ابتسمت مرحبا وكدت أخبرها أنني أمتلك روايتها.. لكن خشيت أن تسألني عن رأيي بما قرأته.. فسكت.. لتقول سريعا:

- أظن أنك تعرف (غلا)!!.

استغرق الأمر لحظات قبل أن أتذكر.. ثم.. أومأت برأسي إيجابا.. وأخبرتها أنها زارتني منذ مدة.. و.. لم أكمل كلامي.. فقد انفجرت المؤلفة باكية.. لتخبرني أن (غلا) ماتت!!!.

شعرت بألم عميق يجتاح قلبي فجأة.. والمؤلفة تكمل بحسرة:

- لقد ماتت منتحرة يا دكتور!!.. أعتقد أنها أخبرتك بقصتها كاملة كما أبلغتني بنفسها رحمها الله.. فقد طلبت المسكينة لقائي للضرورة القصوى عبر وسائل التواصل الاجتماعي.. بصراحة لم أعر الأمر اهتماما في البداية.. كون تلك الرسائل غالبا ما يتضح أن وراءها مؤلفا مبتدئا يريد مني الاطلاع على كتاباته وهو يظن أنه الوحيد الذي يطلب مني شيئا كهذا.. وآخر يريد فقط أن يسألني عن مدى واقعية القصص التي أكتبها ظنا منه أيضا أن الفضول يقتله هو وحده!!.. لكني وجدت الفتاة ترجوني وتتوسل إلي أن تلتقي بي بطريقة توحي وكأن الأمر بالغ الخطورة.. فأعطيتها رقم هاتفي.. لتتصل بي وتخبرني بقصتها كاملة.. بصراحة كان كلامها غريبا لا يصدق.. خاصة حين راحت ترجوني أن أغير الجزء الثاني من الرواية وأنقذ ما يمكن إنقاذه كونها باتت تقلد بطلة روايتي حرفيا.. وترتكب أفعالا خارقة السوء رغما عن إرادتها.

سكتت قليلا أمام نظراتي الحائرة.. لتفرغ أنفها في منديل أخرجته من حقيبتها.. ثم أكملت:

- تجاهلت توسلاتها.. وطلبت منها ألا تتصل بي مرة أخرى.. ثم أنهيت المكالمة.. وقفلت أي اتصال يأتي من رقمها بعد أن راحت تتصل وتتصل بطريقة أزعجتني.. لكن الأمور تجاوزت المعقول!!!.

سألتها باستغراب عما تعنيه.. لتقول:

- إنني أسكن في شقة.. وزوجي يعمل طيارا في إحدى خطوط الطيران.. لذا فهو يسافر معظم أوقات السنة.. وهذا ما يجعلني وحيدة مع طفلتي التي لم تبلغ عامها الأول بعد!!.. وقد تمكنت (غلا) بوسيلة ما من الوصول إلى شقتي.. فطرقت الباب مدعية للخادمة أنها تسكن في الطابق العلوي وقد جاءت لنا ببعض المأكولات.. وحين فتحت الخادمة الباب.. اندفعت إلى الداخل بكل قوتها.. وراحت تصرخ سائلة عني!!.. لقد أثارت الضجة انتباهي بالطبع.. فتركت طفلتي في الغرفة وذهبت لأرى ما يحدث.. لأجد (غلا) أمامي!!.. الغريب في الأمر يا دكتور أن ملامحها بدت مألوفة إلى حد ما.. لكني لم أذكر أين رأيتها بالضبط.. هذا ما قالته أيضا وهي تعرّفني بنفسها سريعا.. وتخرج سكينا لتضعه أمام وجهي وسط الذعر الذي أصاب الخادمة!!.

قلت بذهول:

- يا إلهي.. لقد تمادت كثيرا رحمها الله!!.. لماذا فعلت كل هذا؟!.

ردت بألم:

- لقد أصابتني برعب هائل.. خاصة حين طلبت من الخادمة أن تذهب إلى غرفتها وتتركنا لوحدنا.. ثم دفعتني دفعا وهي تطلب مني أن آخذها إلى جهاز الكمبيوتر الذي أكتب فيه الجزء الثاني من روايتي!!!.. تخيل هذا!!.. المهم أنني كنت أنفذ كلامها حرفيا من شدة الخوف.. أما هي.. فراحت تقرأ بسرعة جنونية.. وتطلب مني بين لحظة وأخرى أن أغير في الأحداث.. على أن تعيش البطلة حياة سعيدة في نهاية الجزء الثاني.. حيث استغرق الأمر 5 ساعات كاملة.. اضطررت فيها للذهاب إلى غرفتي لإرضاع صغيرتي والاطمئنان عليها أكثر من مرة.. وأنا أحاول بين الحين والآخر استخدام هاتفي للاتصال بالشرطة.. لكن (غلا) لم تتركني لحظة واحدة.. ويبدو أن الخادمة انزوت في غرفتها وفضلت الابتعاد عن المشاكل وعدم الاتصال بالشرطة للأسف.. المهم أنني في النهاية -وبعد أن كتبت حرفيا ما طلبته مني- انهارت (غلا) باكية.. وراحت تعتذر

لي.. وتشكرني على إنقاذ حياتها!!.. بل وتؤكد لي للمرة الثانية صدق كلامها.. وأن كل ما أكتبه يجعلها تنفذه على أرض الواقع.. وكأنها بطلة روايتي!!.

قلت بأسف:

- مسكينة.. كانت مقتنعة تماما بما تقوله.. وتصر على صدق كلامها!!.

ردت بآخر ما توقعته.. حين قالت بحرارة:

- لقد كانت صادقة يا دكتور!!.. أنا أؤكد لك ذلك!!.

قلت بحدة:

- لا تخبريني بهذا الهراء أرجوك.. ولو كانت قصتها حقيقية.. فلماذا انتحرت؟!.. ألم تطلب منك تغيير الأحداث وفعلت؟!.. هذا ينسف فكرتها.

ردت بحزن:

- لأنني كنت قد منحت المطبعة مسودة الكتاب جاهزة للطباعة ولم أخبر (غلا) بذلك.. وفي نهاية أحداث القصة.. تقدم البطلة على الانتحار فعليا!!.. لقد اتصلت بالشرطة حال رحيل (غلا).. وأخبرتهم بما فعلته.. فاتصلوا بوالدها يطلبون منه أن يأتي بها إلى المخفر.. لكن أقفلت المسكينة

باب غرفتها على نفسها.. وأقدمت على الانتحار بعد أن قطعت شرايين معصمها!!.

تنهدت بعمق وأنا أقول:

- تبدو لي وكأنها النبوءة التي تقود أصحابها -لا شعوريا- إلى تحقيقها.. قصص كهذه تحدث.. لا أظن أن (غلا) كانت محقة عموما.

ردت وهي تشير إلي بسبابتها:

- بل كانت محقة تماما.. لقد أخبرتك منذ قليل أنني رأيت (غلا) من قبل ولا أذكر أين.. لكني تذكرت متأخرة للأسف.. تذكرت بعد انتحارها!!.. فقد رأيتها ذات مرة في دولة أجنبية في استعراض جماهيري.. وأمام شاب من جنسية خليجية.. إنه خبير في (البرمجة اللغوية العصبية)*.. والتنويم المغناطيسي.. حيث ابتكر ذلك الشاب شيئا أطلق عليه مصطلح

---

* البرمجة اللغوية العصبية يرمز لها عادة بـ (NLP) اختصارا لـ (Neuro Linguistic Programming).. وهي وسيلة لتطوير السلوك الإنساني من خلال استخدام تمرينات محددة لبرمجة العقل.. كي يتم تحسين الحالة النفسية للإنسان والتخلص من مخاوفه.. أي أن الفكرة قائمة على تفكيك مشاعرنا السلبية ومخاوفنا القديمة وعاداتنا السيئة.. والمساهمة في تغييرها إلى مشاعر إيجابيّة.. مع التعرف على استراتيجيات وطُرق التفوق والنجاح.. والحرص على تطبيقها.. ورغم كل هذا.. ما زال الأمر مثيرا للجدل والنقاش.. إذ لم يتم الاعتراف بالبرمجة اللغوية العصبية رسميا حتى الآن.

(التهكير الذهني)*.. وقد جعل بيني وبين (غلا) وسيلة تواصل ذهنية لا أفهمها حتى الآن.. وبسببها.. أصبحت قادرة على التأثير على (غلا) من خلال كتاباتي!!.

حسنا.. كان هذا آخر ما توقعته.. لا يمكن أن تصل الصدف إلى هذا الحد.. إنني أعرف مصطلح (التهكير الذهني) الذي تتحدث عنه.. وبصراحة لم أكن أصدق بوجوده.. لكن ما أراه.. وما حدث.. يثبت لي حماقتي!!.. مشكلة التعامل مع المرضى النفسيين أنك لا تستطيع أن تضع خطا فاصلا بين الواقع والخيال.. فيختلط عليك الأمر كثيرا.. مما يجعلك ترتكب العديد من الأخطاء.. وهذا ما جعلني أسكت طويلا وقد

---

* (التهكير الذهني) أو (تهكير الدماغ) هو التحكم بأفكار الآخرين والسيطرة عليها.. وهو فن يعتمد على إدخال الإنسان في حالة تركيز عالية جدا من خلال تهيئته ليتنفس بطريقة معينة.. ومساعدته على الاسترخاء التام.. ومن ثم إخضاعه للتنويم المغناطيسي.. مع استخدام البرمجة اللغوية العصبية (NLP) بنفس الوقت.. وذلك حتى يكون جسده تحت تصرف عقله الباطن.. وليس عقله الواعي كما هو الحال عادة.. حينها يقوم الخبير بالدخول إلى لاوعي الإنسان ليغرس في عقله خبرات معينة أو لتوجيه أفكاره ومشاعره وتصرفاته.. والأمر يتطلب مهارة عالية جدا يجيدها شاب خليجي شهير.. حيث ظهر في العديد من البرامج التلفزيونية.. وتحدث فيها حول هذا الأمر.. بل ومارس عملية (التهكير الذهني) أكثر من مرة على مجموعة متطوعين وأمام حضور جماهيري كبير.. ويقال إنه بإمكان الخبير تخدير الشخص ذهنيا بالكامل إلى درجة تمكنه من الخضوع لعملية جراحية من دون ألم.. والواقع أنه لا توجد ترجمة انجليزية دقيقة لـ(تهكير الدماغ).. فهو مصطلح عربي خالص صاغه الشاب الخليجي المذكور كما قال بنفسه في إحدى لقاءاته.

شعرت بأسى بالغ تجاه تسرعي في الحكم على الأمور.. لأغمغم بعد لحظات من الصمت:

- ذلك الشاب صنع بينك وبين (غلا) تواصلا ذهنيا لم ينقطع حتى بعد فراقكما.. وجعلك تسيطرين عليها بكتاباتك من دون قصد.. فباتت تتصرف كما تفعل بطلة روايتك.. هل هذا ما تحاولين قوله؟!.

قالت بحزن وهي تومئ برأسها إيجابا:

- لقد تمكنت من التواصل مع ذلك الشاب.. وأخبرته بكل ما حدث.. فأقسم لي أن شيئا كهذا لم يحدث معه من قبل.. ثم تحدث عن أن هناك أسرارا كثيرة ربما لم يتوصل إليها بعد في مسألة (تهكير الدماغ) هذه.. والتي أدت إلى كل ما حدث.. كما تساءل.. لماذا لم يكن التأثيرا عكسيا؟!.. لماذا لم تؤثر (غلا) بي؟!.

قلت مفكرا:

- ربما لأنك أثناء الكتابة تكونين بحالة تركيز عالية جدا كحال كل شخص ينهمك في عمل إبداعي -وليس روتيني- وهذا ما جعلك تؤثّرين على عقل (غلا) وتجعلينها ترتكب كل أفعال بطلة القصة.. يا إلهي.. لا أصدق أنني أقول هذا

الكلام.. لكنه التفسير الوحيد لما حدث!!.

ردت وقد ترقرقت الدموع في عينيها للمرة الثانية:

- تخيل أنه كان بإمكاني إنقاذ حياة فتاة بريئة لو تذكرت فقط أين رأيتها.. فربما كنت سأصدقها وأغير أحداث القصة قبل دخولها للطباعة.. لا أفهم لماذا نتذكر الأشياء المهمة بعد فوات الأوان!!.

ترقرقت الدموع في عيني أنا الآخر.. كم أشعر بالحنق لما حدث.. كم أشعر بالندم.. أعلم أن لكل شخص ندَما خاصا يرافقه إلى قبره.. فكم من ندَم سيرافقني إلى قبري يا ترى؟!.. ثم.. قلت محاولا مداراة دموعي:

- إن ما حدث يعد في نطاق غير المعقول.. ولو قلناه لأحد لما صدّق.. لا أدري إن كان يجب أن نلوم أنفسنا.. كم أشعر بالأسف لما مرت به هذه المسكينة.

نظرت إلي طويلا.. ثم أطلقت تنهيدة حارة.. لقد كانت تريد أن تخرج من صدرها ما عاشته من أحداث.. كوني أعرف (غلا) وأعرف بعض تفاصيل القصة.. لتشعر بعد ذلك أنه لا يوجد ما تضيفه.. فنهضت من مكانها وهي تخبرني أنها ربما ستزورني مرة أخرى.. كونها ما زالت تمر بأزمة نفسية حادة تجاه ما

حدث.. رغم أن شقيقها غير المتزوج انتقل ليقيم معها علها تتجاوز أزمتها.

أما أنا.. فقد انضمت تلك القصة بكل تأكيد للقصص التي لا أنساها أبدا.. والتي اعتدت إطلاق مسمى (حالات نادرة) عليها.. فهي قصة غريبة.. وبدت لوهلة وكأنها مستحيلة الحدوث.. لمؤلفة تتلاعب في واقع فتاة من دون أن تعرف.. ولأسباب خارجة عن إرادة الفتاتين!!.

اختفاء زوج!!

تحكيها: (ندى)

العمر: 26 سنة

الفترة الصباحية.. لا أحبها كثيرا.. ربما لأنني كائن ليلي أصلا.. وقد ذكرت هذا مرارا في الماضي.. لا يمكن لمن يعشق الهدوء والعزلة وصوت (عبدالحليم حافظ) أن يحب أشعة الشمس وازدحام المراجعين.. لكنه العمل في النهاية.. وعلي أن أحترم مواعيده وأكون شديد التركيز أثناء تأديته.. فكل مهنة في العالم لها مجال للتقاعس.. إلا مهنة الطب.. وهذا ما يجعلني أغلق ستائر غرفتي السميكة بشكل دائم منعا لدخول أشعة الشمس.. أريد أن أعيش أجواء الليل حتى في النهار!!.. إنني أفعل هذا في شقتي أيضا.

وربما تحدثت سابقا عن ذلك التحفز الغريب الذي أشعر به كطبيب نفسي منتظرا المريض التالي أو.. الحالة التالية.. فهناك لذة فطرية يحملها كل إنسان لمعرفة أسرار وخبايا الناس.. لذا كنت في حالة تحفز حين سمعت طرقات خفيفة على الباب.. لتدخل منه فتاة في أوائل العشرينيات من العمر كما بدت للوهلة الأولى.. كانت بيضاء البشرة دقيقة الملامح.. ترتدي فستانا أنيقا قصير الأكمام.. وشعرها كستنائي اللون طويل نسبيا.. وقد بدت حزينة منكسرة.. هل خرجت من تجربة فاشلة وأصيبت بالاكتئاب؟!.. تمر علي قصص كثيرة كهذه لكني

لا أسردها لكم.. لأنها ليست (حالات نادرة).. بل قصص عادية لن تثير اهتمام أحد.

جلستْ على الكرسي المقابل لمكتبي وهي تلقي التحية وتعرفني باسمها بصوت منخفض تكاد لا تسمعه.. ثم راحت تتأمل أناقة وترتيب المكتب وكأنها تريد إفراغ توترها.. مما أشعرني بشيء من الفخر كون ذوقي أعجبها كما يبدو.

سألتها بهدوء عن سبب زيارتها.. لتردد الأسطوانة التي أسمعها عدة مرات كل يوم تقريبا:

- كنت أشعر بالخجل من زيارتي لمستشفى الطب النفسي.. لكني لم أعد أحتمل.. إن حالتي النفسية تسوء يوما بعد يوم منذ اكتشافي تلك الحقيقة المفزعة.. أعتقد أنني مصابة بالاكتئاب.. لم يعد عسيرا على المرء إدراك ذلك في هذا الزمن.

حسنا.. بإمكاني التأكد من إصابتها بأعراض الاكتئاب ومنحها الدواء الذي أراه مناسبا.. ثم أنهي زيارتها.. لكني بصراحة أحب عملي.. وأحب الاستماع إلى مشاكل المرضى.. وكما أقول دائما فإن الفضفضة نصف العلاج.. فابتسمت وأنا أسأل الفتاة:

- هل لك أن تخبريني بالمشكلة قبل القفز لموضوع الاكتئاب؟!.. ما الذي حدث لك بالضبط؟!.

نظرت إلي بانكسار.. ثم قالت بأسى:

- أخشى ألا تصدقني يا دكتور.

سمعت هذه العبارة كثيرا أيضا.. وهذا ما جعلني أتحفز في مكاني بطريقة تمثيلية كوني أحمل ذلك الشعور الدائم أنني بطل في فيلم.. وقلت عبارتي الخالدة:

- دعي مسألة التصديق من عدمها لي.

قالت بانكسار:

- زوجي يا دكتور.. القصة كلها بدأت باختفاء زوجي!!.

سألتها بشيء من الاستغراب:

- لنبدأ باسمك أولا.. ثم.. كيف اختفى زوجك؟!.. هل هجرك مثلا؟!.

ردت وهي تتنهد:

- اسمي (ندى).. وقصتي بدأت منذ أكثر من حوالي 5 سنوات.. حين أخبرني والدي أن ابن أحد أصدقائه يرغب بالتقدم لخطبتي.. وأن الشاب من عائلة محترمة.. والواقع أن أبي

كان محقا.. إذ شعرت بشيء من الانجذاب تجاه الشاب حين قابلته في بيتنا.. فهو وسيم إلى حد ما.. وطموح يبذل جهدا كبيرا في عمله بأحد البنوك.. لذا لم أجد سببا للرفض.. خاصة وأنني كنت قد خرجت قبلها بحوالي سنة من تجربة حب فاشلة أثرت كثيرا على حالتي النفسية.. المهم أننا تزوجنا وانتقلنا للسكن في شقة مناسبة وأنيقة للغاية في منطقة (المسايل).. حيث عشت مع زوجي سنتين جميلتين هادئتين.

سألتها بهدوء:

- هل حدثت أي مشاكل؟!.. تدخلات الأهل مثلا.. أو حتى مشاكل مادية.

هزت رأسها نفيا لتقول:

- إطلاقا.. والواقع أننا لم نكن نتفارق تقريبا.. فقد أحبني بصدق وكان يقضي جل وقت فراغه معي.. حتى أنه طلب مني تأجيل الإنجاب كي تستقر حياتنا المادية أكثر.. ثم.. خرج ذات يوم إلى العمل.. ولم أره منذ ذلك الحين!!!.

ابتسمت بطرف فمي وأنا أسألها مستغربا:

- كيف؟!.. بهذه البساطة؟!.

أكدت بأسى:

- نعم.. بهذه البساطة يا دكتور.. أتذكر أنني عدت من عملي يومها.. وجلست أنتظره في البيت كونه يعود دائما متأخرا بسبب ساعات عمله الطويلة كحال العمل في البنوك.. حيث طلبت من الخادمة أن تجهز الغداء على أن أذهب لتبديل ثيابي ريثما يعود.. لكنه لم يعد أبدا!!!.. فاتصلت به أكثر من مرة.. إلا أن هاتفه كان مغلقا على غير العادة.. لن أطيل عليك وأتحدث عن القلق الذي عشته.. والاتصال بأهله.. وأهلي.. ثم إبلاغ الشرطة في اليوم التالي.. إنها تفاصيل معروفة تتبع اختفاء أي شخص.. كنت أخشى أن يكون قد تعرض للقتل مثلا لسبب أجهله وأن القاتل دفن جثته في مكان ما.. أمور كهذه قد تحدث.

سألتها وقد تذكرت أمرا هاما:

- ماذا عن سيارته؟!.. ألم يعثر عليها رجال الشرطة؟!.

ردت بشرود:

- تؤ!!.

بدت فاتنة وهي تطلق ذلك الصوت كناية عن النفي.. فقلت بتعاطف:

- حسنا.. الأمر بيد الشرطة.. دعينا نتحدث عنك إذا.. تقولين أنك مصابة بالاكتئاب.. ما هي الأعراض التي تشعرين بها بالضبط؟!.

قالت بحزن:

- القصة لم تنته بعد!!!.

تذكرتُ أنها تخشى ألا أصدقها كما قالت في بداية قصتها.. إذا هناك المزيد ولا شك.. طلبت منها أن تكمل.. لتقول:

- بعد بضعة أسابيع من اختفاء زوجي.. انتقلت للسكن في بيت العائلة.. ثم عدت بعدها بفترة قصيرة إلى شقتي رغم اعتراض والدي.. إذ وجدت أن هذا يمنحني شيئا من الأمل أن زوجي سيعود يوما.. لكن.. ظللت في شقتي هذه طوال السنتين الماضيتين من دون جدوى.. ثم.. ومنذ بضعة شهور.. حدثت تغييرات مريبة في حياتي.. أشياء صغيرة لم أنتبه لها في البداية.. إلا أنها قفزت في ذهني فجأة ذات يوم وأنا أسترجع أحداثا ماضية.. مع دقة الملاحظة.. والذاكرة القوية.. وسرعة الربط.. كل هذا

جعلني أقدم على مغامرة خطيرة.. حين دعوت اثنتين من أقرب صديقاتي إلى شقتي لأمر مهم للغاية كما ذكرت لهما.. وعبثا حاولتا معرفة سبب دعوتي هذه.. إلا أنني رفضت التحدث لحين مجيئهما.

أغمضت عينيها للحظة.. وكأنها تتذكر.. ثم أكملت:

- كانت الساعة تتجاوز الثامنة مساء بقليل.. حين وصلت (س) وتبعتها (د) بحوالي ربع الساعة.. والمعذرة كوني لن أذكر اسميهما الحقيقيين.. لقد بدوت لهما مشتتة تماما.. وقد لاحظتا ذلك بنفسيهما.. أعرف أنهما اعتادتا حزني وتفكيري الدائم بمصير زوجي رغم مرور كل هذه المدة على غيابه.. لكني هذه المرة تحديدا كنت في حال أسوأ.. لتسألني (س) بقلق عما دهاني.. فتجاهلت السؤال!!.. وطلبت منهما أن تتبعاني إلى غرفة الخادمة لأريهما شيئا.. وما إن دخلنا الغرفة وسط نظرات استغرابهما.. حتى قمت بحركة مباغتة جعلتهما تتسمران في مكانيهما من دون فهم.. إذ خرجت مسرعة وأقفلت عليهما الباب بالمفتاح.. وهذا يعني أنني عزلتهما عن العالم بأسره في غرفة صغيرة.. خاصة بعد أن تركتا هاتفيهما في غرفة المعيشة كما هو متوقّع.

نظرت إليها متسائلا وغمغمت:

- ما هذا التصرف الغريب؟!.. أنا لم أفهم شيئا!!.

تجاهلَتْ سؤالي لتضيف:

- قلت لهما من خلف الباب -وبصوت مرتفع قليلا- أن لا توجد لدي خادمة.. فقد طلبت منها العودة إلى بلدها منذ مدة لعدم حاجتي لها.. لذا لا يوجد في الشقة سوانا.. وأنهما لن تخرجا أبدا من تلك الغرفة إلا حين تجيبا على أسئلتي!!.. كما ذكّرتهما أن الغرفة منعزلة لا تحوي أي نوافذ لطلب النجدة.. بالطبع راحت كل منهما تتساءل باستغراب وذعر عن سبب تصرفاتي المريبة هذه.. لكني لم أرد.. بل طلبت منهما مباشرة إخباري بمكان زوجي!!!.

مططتُ شفتي لأقول:

- يبدو أنك عثرت على دليل ما بين أغراض زوجك يثبت أنه كان على علاقة بإحداهما؟!.. أليس كذلك؟!.

هزت رأسها نفيا وهي تشير إلي بسبّابتها قائلة:

- الأمر أكبر من هذا.. دعني أكمل.. كما كنت أتوقع.. كلتاهما راحت تنفي معرفتها بأي شيء.. وأنه من العيب

أن أشك بهما كونهما صديقتيْ على حد قولهما.. مما جعلني أقدّم أدلتي بكل وضوح.. فـ(س) كانت زميلتي في النادي الرياضي الذي أذهب إليه يوميا.. حيث لاحظت أنها تحاول باستمرار كسب صداقتي وبطريقة ملفتة.. فسمحت لها أن تدخل حياتي تدريجيا كوني إنسانة اجتماعية للغاية.. حتى غدونا صديقتين.. بكل تأكيد ليس هذا السبب الذي جعل شكوكي تحوم حولها.. بل لأنني دعوتها إلى شقتي ذات يوم بعد اختفاء زوجي بمدة.. ولاحظت أنها تعرف عني الكثير يا دكتور.. الكثير جدا.. كان لسانها يزل في أكثر من مناسبة.. فاكتشفت أنها تعرف أغنيتي المفضلة مثلا.. أو فيلمي المفضل.. وحين تلاحظ استغرابي.. ترتبك بصورة واضحة.. ثم تتمالك نفسها وتخبرني أنني ذكرت لها ذلك بنفسي في مكالمة هاتفية سابقة أو أثناء خروجنا معا.

قلت مبتسما:

- ربما تكون محقة.. هذه الأشياء تحدث!!.

هزت رأسها نفيا بقوة وهي تؤكد:

- مستحيل يا دكتور.. أنا واثقة أنني لم أفعل.. وارتباكها

خير دليل.. بل أن لسانها زل ذات يوم أثناء خروجنا معا.. وأخبرتني باسم شقيقتي التي لم أتحدث عنها من قبل.. ألا يثير هذا الشكوك؟!.. لقد حاولت محاصرتها أكثر من مرة بكيفية معرفتها تلك الأشياء عني.. لكنها ظلت تقسم وتقسم أنني أخبرتها بذلك بنفسي.. وأنا أعرف أنني لم أفعل.. مشكلة (س) أنها تتحدث كثيرا.. ومن يتحدث كثيرا.. يخطئ كثيرا!!.

قلت صراحة:

- ربما كانت على علاقة بزوجك وهو أخبرها بتلك الأمور عنك.. لكن.. ما الذي جعلها تسعى للتعرف عليك ومصادقتك في النادي؟!.

ردت بسرعة:

- لم أكن أعرف السبب.. المهم أنني واجهتها بكل هذا مرة أخرى وهي محبوسة في غرفة الخادمة.. إلا أنها ظلت تنكر وتنكر.. وتقسم أن كل ما تعرفه عني قد قلته لها بنفسي في السابق.. نفس الأسطوانة المشروخة.. ثم نقلت كلامي إلى (د) التي وجهت لها اتهاما هي الأخرى.. فذكّرتها بزيارتها لي ذات يوم في شقتي أيضا.. حين قمنا

بتجهيز وجبة العشاء.. حيث ذهبت لمساعدتي في المطبخ.. وقد كنت غبية ليلتها.. إذ لم يلفت انتباهي أمر غريب للغاية وشديد الوضوح.. أن (د) تعرف مكان كل شيء في المطبخ.. فقد أخرجت الأطباق والملاعق من مكانها من دون بحث.. وكأنها تعيش معي!!!.. حتى أنها عرفت طريقها إلى دورة المياه بكل بساطة ولم تسألني عن مكانها.

سألتها باستغراب:

- ماذا عن (د) هذه؟!.. كيف التقيت بها؟!.

غمغمَتْ ببرود:

- إنها صديقتي منذ حوالي 4 سنوات.. وكانت زميلة عمل أيضا.. قبل أن تنتقل للعمل في مكان آخر.. كنت أقول أنني واجهت (د) بتلك الحقيقة.. ورغم أنها كانت خلف الباب ولم أرَ ملامحها.. إلا أنني أؤكد لك ارتباكها.. إذ خرجت كلماتها متوترة مبعثرة وهي تخبرني بتخاذل أنها قد تكون غريزة الأنثى التي تعرف مكان كل شيء في المطبخ.. وهذا هراء بالطبع.. إنني بنت وأدرك أن بنات هذا الزمن لا يدخلن المطبخ تقريبا.

قلت بإعجاب:

- ملاحظتك ذكية.. ماذا حدث بعد ذلك؟!.

ردت ببساطة:

- لهذا أخبرتهما أنهما لن تخرجا من هذه الغرفة أبدا لحين الاعتراف.. فلا يوجد هاتف لديهما.. ولا يوجد أحد في شقة الطابق السفلي كي يسمع صراخهما.. بعد أن خرج أصحاب تلك الشقة منذ فترة بسيطة لتظل خاوية معروضة للإيجار.. دعك من أن منطقة (المسايل) لم يصلها العمران كاملا بعد.. أي أنهما محبوستان عندي إلى أجل غير مسمى!!.. كما ترى.. كل الظروف كانت مثالية بالنسبة لي.

شعرتُ أن القصة ستأخذ منحى آخر.. وهذا ما جعلني أقول بتوتر:

- أظن أنك حرقت كل الجسور بينك وبينهما ولم يعد هناك مجال للإصلاح.. المعذرة.. لكنك تصرفت بطريقة أقرب إلى الإجرام.

ردت بألم:

- نعم.. لقد حرقت كل الجسور كما تقول.. لأنني كنت واثقة أن إحداهما لها علاقة باختفاء زوجي الذي أحببته بحق.. أو على كل منهما أن تأتي بتفسير مقنع لما ذكرته لهما.. وأصدقك القول.. فكرت بإبلاغ الشرطة بنفسي.. لكن أي دليل أمتلكه ضدهما؟!.. الغريب أنني لم أفكر حينها بعواقب مغامرتي المجنونة هذه وإلى ماذا ستؤدي إليه لو أصرت كل فتاة على إنكارها.

نظرتُ إلى السقف وأنا أقول:

- لا أعتقد أن ما فعلتِه كان كافيا لإجبارهما على التحدث.. ستظل كل منهما تنكر.. فما الحل؟!.

وضعتْ سبابتها أمامي للمرة الثانية لتقول:

- كلامك سليم.. فبعد ساعتين كاملتين من الشد والجذب والنقاش والجدل.. انتبهت لهذه الحقيقة.. ليزداد غضبي.. المشكلة أن الغيرة قتلتني.. والغيرة يا دكتور ليست شعورا عاديا بالنسبة للأنثى.. إنها كالحمّى.. تنهك جسدها وتجعلها طريحة الفراش فاقدة الرغبة بكل شيء.. فكل الأدلة توحي أن إحداهما كانت على علاقة بزوجي.. ولو لم يكن الأمر كذلك.. فما تفسير كل ما ذكرته لك؟!..

صدقني.. كنت بحاجة جنونية كي أعرف الحقيقة.. لقد شعرت ليلتها أن حواسي الخمس كلها أصبحت في قلبي فقط!!.. وهذا ما جعلني أقدم على خطوة أخرى للضغط عليهما.. إذ قمت بقطع الكهرباء عن الغرفة ليشعرا بحرارة الجو.. فقد كنا في منتصف شهر يونيو!!!.

قلت بشرود:

- وسيلة ضغط قوية بالفعل.. فحرارة الأجواء ستذيب أعصابهما!!.

وافقتني بإيماءة من رأسها.. ثم أكملت:

- كنت جادة وصارمة في كلامي.. حتى أن الفتاتين انهارتا تماما وراحت كل منهما تبكي وتنتحب بعد أن ظلتا محبوستين.. خاصة مع شعورهما بحرارة الغرفة تدريجيا.. ولم أستمع أبدا لتوسلات (د) التي تحولت مع مرور الوقت إلى أقذر الشتائم.. أما (س) فكانت أكثر صبرا.. وظلت تحاول إقناعي أنني مخطئة.. إلى أن طرأت في ذهني فكرة جديدة.. فذهبت إلى الصالة حيث هاتفيهما.. وطلبت منهما أرقامهما السرية.. سأبحث في هواتفهما وسأقتحم كل أسرارهما.. لكن.. كل منهما رفضت ذلك.. مما أكد لي أن شكوكي في محلها.. فقررت استمرار حبسهما بهذه

الطريقة لأطول مدة ممكنة.. كان لا بد من حسم الأمر في تلك الليلة.. خاصة بعد أن فقدت المتعة بكل شيء منذ غياب زوجي.

رحت أحك ذقني الحليقة مفكرا.. ثم قلت:

- لو كنت تقصدين (انعدام التلذذ) (Anhedonia).. فهو مرض نفسي شهير* يصيب المرء نتيجة الاكتئاب أو (الفصام)**.. وقد يعانيه أيضا المصاب بـ(الاضطراب ثنائي القطب)***.. أخبريني.. ماذا حدث بعد ذلك؟!.

---

* حقيقة.

** (الفصام) أو (الإسكيزوفرينيا) (Schizophrenia) يختلف عن (اضطراب ازدواج الشخصية) (Multiple Personality Disorder) الذي يظهر بسببه المريض بأكثر من شخصية كما نشاهد في السينما.. فـ(الفصام) اضطراب نفسي حاد يؤثر على التفكير والمشاعر والتصرفات.. ويجعل المصاب به في حالة من الهلوسة والانفصال عن الواقع.. مع الانفعال الشديد إلى درجة الهيجان.. وعدم القدرة على التركيز.. وانعدام التلذذ في أمور عادة ما تكون ممتعة للإنسان السوي.. مع العلم أن أسباب مرض الفصام ما زالت مجهولة إلى الآن.. إلا أن هناك أبحاثا تشير إلى وجود عامل وراثي.. وهناك من يشير أيضا إلى العوامل الاجتماعية والمشاكل الأسرية.

***(الاضطراب ثنائي القطب) حالة عقلية تتسبب في تقلبات مزاجية مفرطة.. كأن تشعر بالحزن أو اليأس وفقدان الاستمتاع بأنشطة تحبها.. وأحيانا أخرى تشعر بالابتهاج الشديد أو الامتلاء بالطاقة أو سرعة الغضب على نحو غير معتاد.. وهذه التقلبات من الممكن أن تؤثر على النوم.. والسلوك.. والقدرة على اتخاذ القرارات والتفكير بوضوح.. وفي معظم الحالات.. يتم علاج (الاضطراب ثنائي القطب) بالأدوية وجلسات العلاج النفسي.

قالت بحزن شديد:

- بعد ساعات طويلة من حبسهما في غرفة الخادمة.. وبعد أن قتلتهما الحرارة وشعرتا أنني لن أفتح لهما الباب أبدا.. حصلت على الحقيقة التي كنت أنشدها يا دكتور.. فكان ما سمعته.. آخر ما توقعته!!.

اعتدلتُ في جلستي وكأنني أستعد لسماع مفاجأة مدويّة.. وبالفعل:

- لقد انفجرت (د) باكية فجأة.. ثم أخبرتني بحزن أنها كانت على علاقة بزوجي!!.. وأنها زارته أكثر من مرة وقضت عنده عدة أيام في شقتي هذه حين كنت أسافر في أكثر من مناسبة بسبب طبيعة عملي.. مما جعلها تعرف مكان كل شيء في الشقة.. لأنفجر باكية بدوري بعد أن تيقنت من شكوكي!!.

سألتها بحزن:

- آسف جدا لما حدث.. لكن هذا لا يجيب على شيء.. ماذا عن زوجك؟!.. أين اختفى؟!.. وماذا عن (س)؟!.

أجابت بعينين مغرورقتين بالدموع وهي تضع يدها على جبينها:

- كانت هذه الصدمة الأكبر يا دكتور.. فقد قالت (س) أنها هي زوجي!!!.

تراجعْت وقد بدت على وجهي علامة الاستغراب.. لتكمل هي:

- ألم تفهم؟!.. (س) هي زوجي يا دكتور.. وقد أجرى عملية جراحية ليتحول إلى أنثى!!.

اتسعت عيناي ذهولا.. فأردفَتْ:

- نعم.. هذا ما حدث.. زوجي سافر إلى إحدى الدول الآسيوية بجواز والده الذي يشبهه كثيرا.. خاصة بعد أن أجرى بعض التغيير على ملامحه بمساعدة خبير ماكياج.. وصبغ شعره بالشيب.. لذا لم يظهر أبدا للشرطة أن زوجي خرج من (الكويت) أصلا.. حيث أجرى أثناء سفره عملية التحول الجنسي.. ثم حصل على حق اللجوء في دولة أوروبية.. وقضى هناك سنتين تقريبا.. ليعود إلى (الكويت) بجواز يحمل هويته الجديدة على أنه أنثى!!.. كل هذا خوفا من المشاكل التي قد يعانيها في مجتمعنا الخليجي الذي لن يتفهم أو يتقبل هويته الجنسية الجديدة.. أما والد زوجي.. فهو لا يسافر أبدا بفعل عامل السن.. ولم

يكتشف حتى الآن أن جوازه مفقود.. كان هذا سيوفر علينا الكثير من عناء البحث والتساؤلات!!

كنت أنظر إليها مصدوما من دون تعليق.. فأخذَت منديلا من على مكتبي لتمسح دمعتها التي سالت فجأة.. وتكمل:

- في البداية فتحت الباب وأنا مصدومة.. لأجد الفتاتين في أسوأ حال ممكن وقد امتلأ وجهاهما بالعرَق والدموع.. وكانت نظراتهما تؤكد أن ما قالته كل منهما صحيح تماما.. ثم طلبت منهما توضيحا لكل شيء.. فالقصة لم تتضح بصورة كاملة.. لتتبعاني بتخاذل.. ونجلس في غرفة المعيشة.. ويتحدث زوجي بشخصيته وهويته الجنسية الجديدة.. يقول أنه -ومنذ طفولته- يعاني عدم الارتياح والتوتر النفسي تجاه نوع الجنس الذي وُلد به.. وكان يشعر في أعماقه أنه بنت.. بل وكان يلبس الفساتين في الخفاء ويلعب بالعرائس ويرفض اللعب مع الأولاد.. كما كان يهتم بثياب البنات ويفضل ارتداءها.. فجرب معه والداه كل شيء تقريبا لثنيه عن ذلك.. بداية باللطف.. ثم الشدة والعقاب.. ووصل الأمر إلى مرحلة الضرب

والإكراه.. ويبدو أنه استسلم لهما.. لكنه ظل في أعماقه يحمل ذات الشعور أنه بنت.. إلى أن كبر وأنهى دراسته.

سألتها غير مصدق ما أسمعه:

- ولماذا تزوجك أصلا ووضعك في هذا الموقف؟!.. لقد سبب لك الكثير من المتاعب والألم!!.

قالت بحسرة:

- لقد تزوجني تنفيذا لرغبة والديه.. ونوعا من التجربة.. عله يتغير حين يتزوج.. إلا أن هذا لم يحدث للأسف.. فوضع في ذهنه احتمالا أنه ربما لا يشعر بالانجذاب ناحيتي فحسب.. لذا حاول بناء علاقة مع فتاة أخرى.. وللأسف.. اتضح أن صديقتي (د) فتاة حقيرة بعد أن منحْتها ثقتي وأدخلتها شقتي أكثر من مرة.. إلا أنها خانتني بعلاقة مع زوجي لا أعرف كيف بدأت ولم أهتم لأسألهما.. لكن حتى علاقته بها لم تغير شعوره الداخلي.. فراح يبحث ويسأل.. واستشار أكثر من طبيب من دون علمي.. إلى أن اكتشف أنه مصاب بـ(اضطراب الهوية

الجنسية)*!!.. عندها فقط قام بالتخطيط لكل ما ذكرته لك.

سألتها مستفهما:

- ولماذا عاد زوجك إلى (الكويت) أصلا بعد أن غير هويته الجنسية؟!.. ولماذا حاول التقرب منك بشخصيته الجديدة؟!.

---

* (اضطراب الهوية الجنسية) (Gender Identity Disorder) مصطلح شهير يطلق على الأشخاص الذين يعانون عدم الارتياح أو التوتر النفسي حول نوع الجنس الذي ولدوا به.. وقد كان في الماضي يعتبر اضطرابا نفسيا.. إلا أن الطب اليوم يعتبره مرضا عضويا.. ويتعلق هذا الاضطراب عادة بالتركيبة الجينية للإنسان والتأثيرات الهرمونية على الدماغ منذ فترة تكوين الجنين.. وتبدأ أعراض الاضطراب بالظهور منذ الطفولة.. ليبدأ الطفل بممارسة سلوكيات الجنس المعاكس.. فتمارس البنت الألعاب الخشنة.. وترفض التبول في وضعية الجلوس كما هو الحال عادة مع الفتيات.. مع الإصرار على اتخاذ الأصدقاء من الذكور.. أما الولد فيكون على العكس تماما بالطبع.. إذ تتملكه الرغبة بأن يصبح بنتا.. فيلبس الفساتين ويلعب بالعرائس ويرفض اللعب مع الأولاد.. ويهتم بالموضة وثياب الفتيات الداخلية والخارجية.. ومشكلة المصابين بهذا الاضطراب أنهم يعانون الرفض والنبذ الاجتماعي كون المجتمع يربط الأمر بالدين أو العادات والتقاليد.. أما الحل فيكون عادة بإجراء عملية (تحول جنسي).. حيث توجد إجراءات طبية وعمليات جراحية كاملة تشتمل على إزالة الشعر الزائد بالليزر وتنعيم الصوت.. مع تغيير البشرة وملامح الوجه.. وإزالة تفاحة آدم والخصر والأرداف والأعضاء التناسلية.. وإضافة الثدي.. علما بأن (اضطراب الهوية الجنسية) يختلف عمن يولد بخلل جنسي خلقي.. كأن تولد الأنثى بخصيتين داخليتين في أحشائها.. أو بلا رحم ولا مبايض.. أو أن يولد الذكر برحم.. أو أن يولد شخص يعاني من تشويه خلقي في الأعضاء التناسلية.. فهؤلاء يمرون بعمليات جراحية يطلق عليها اسم (التصحيح الجنسي).. وليس (التحول الجنسي) موضوع قصتنا.

ردت متألمة:

- عاد بسببي أنا.. أراد أن يكون قريبا مني.. كانت مشاعره مختلطة تجاهي كوني كنت زوجته يوما.. يقول أنني كالخاتم باهض الثمن الذي لا يملك المرء ثمنه.. فيراه بين الحين والآخر مبديا إعجابه.. هكذا وصف الأمر.. كما أنه شعر بالذنب لخيانته لي مع صديقتي.. وهجري بهذه الطريقة التي جعلتني لا أعرف وضعي إن كنت متزوجة أو مطلقة.. أو حتى أرملة!!.. فكانت (د) الوحيدة التي أَخبرها زوجي بالحقيقة.. وقد قام ببيع سيارته على أحد محلات الخردة لتقوم بتفكيكها كي لا يعثر عليها رجال الشرطة أبدا.

سألتها وأنا أنظر إليها مباشرة:

- ألم تلحظي أي تشابه بين زوجك بصورته الذكورية والأنثوية؟!!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

- نهائيا يا دكتور.. لم يكن هناك أي تشابه.. صدقني!!.

نعم.. أصدقها بكل تأكيد.. إنني طبيب في النهاية.. وقد قرأت عن حالات كهذه.. وإن لم تكن من صميم تخصصي.. فالعمليات الجراحية المتعلقة بـ(التحول الجنسي) تصنع العجائب.. يا له من مأزق حقيقي.

اعتدلت في جلستي وسألتها:

- لكني لا أفهم.. لماذا لم يطلقك زوجك أولا؟!.. أجد أنه من الظلم أن يبقيك معلقة هكذا ويختفي!!.

هزت رأسها إيجابا لتقول:

- الطلاق الذي يسبق اختفاء زوجي سيكون تصرفا غير طبيعي منه.. وقد يثير التساؤلات والشكوك.. خاصة وأننا كنا سعيدين معا ولم نكن نتشاجر أبدا.. لقد كان يحرص كل الحرص على سمعة عائلته.. ويفضل أن يترك احتمالا أن يكون ضحية جريمة ما مثلا.. أما أنا.. فكل ما سأشعر به لن يتعدى ألم الفقد.. وسيتعاطف معي الجميع كوني الفتاة المسكينة التي اختفى زوجها في ظروف غامضة.. الغريب أنه تمكن من إخفاء مشكلته هذه من دون أن أكشفها على الإطلاق.. رغم أنني عشت معه في شقة واحدة لمدة ليست بالقصيرة كوني زوجته..

ربما اعتاد إخفاء ميوله الجنسية بعد الضغط الشديد من والديه في طفولته ومن ثم مراهقته.. فأصبح بشخصيتين.. شخصية الرجل التي يراها الجميع.. والشخصية الأنثوية التي احتفظ بها لنفسه قبل إجراء العملية -أو لنقل العمليات- الجراحية.

لم أعقب على كلامها.. بل سألتها بتعاطف:

- كيف حالك الآن بعد كل ما حدث؟!.

قالت بصوت باك:

- لست بأفضل حال.. لكني لن أكشف السر لأحد.. سأقوم فقط برفع قضية خُلع كوني معلّقة ويفترض أنني لا أعرف شيئا عن اختفاء زوجي.. وسأبتعد عنه وعن (د) بعد خيانتها لي.. إلا أنني ما زلت أشعر بالألم والحزن.. فلا أستطيع أن أمحو تلك الحادثة من ذهني.

قلت بشيء من الاحترام:

- لا شك أن هناك بعض النبل في أخلاقك كونك لا تريدين أي فضيحة لزوجك.

ردت بحنق:

- لا أفعل هذا من أجله.. بل من أجل والديه وأفراد عائلته.. فقد أحبوني كثيرا.. وعاملوني أفضل معاملة.. الأفضل أن يظل مصير زوجي مجهولا بالنسبة لهم.. لقد تجاوز والديه صدمة اختفائه.. ولا أظنهما سيتجاوزان صدمة ظهوره بنسخة أنثوية.. خاصة وأن صحتهما تسوء يوما بعد يوم بفعل عامل السن.. وقد أصيبت والدته تحديدا بأكثر من أزمة صحية في الأيام الأولى لاختفائه.. لكنها تعايشت مع الأمر بعد مرور كل هذه المدة.. هل.. هل توافقني على ما سأفعله؟!.

قلت بصدق:

- ربما سيكون هذا الحل أفضل.. احتراما لأفراد عائلته كما تقولين.

ردت بألم:

- دكتور.. أشعر أن العائد من الحب.. لا يختلف كثيرا عن العائد من الحرب.. هناك أشياء فقدت ولا يمكن تعويضها.. لأنني أحببت زوجي كثيرا.. وليته كان ميتا.. ربما سأعيش حينها حزينة على ذكراه.. أفضل من هذا الوضع الغريب الذي لا أعرف كيف أصفه.. والذي أصابني باكتئاب شديد.

قلت بحزم:

- كما تقولين.. ما تعرضتِ له أقرب إلى الخيانة.. وهناك 3 مراحل يعيشها من يتعرض للخيانة.. أولها الانهيار النفسي والاكتئاب.. يليها الحقد على الطرف الآخر.. ثم التجاوز واللامبالاة.. والتجاوز إنجاز مهم لا تقللي من حجمه أبدا.. إنها مسألة وقت.. مع بعض الأدوية المضادة للاكتئاب فحسب.

سكتت طويلا وهي تحدق في الفراغ.. فبدا وكأنها تنظر في داخلها!!.. وهذا ما جعلني أحترم صمتها لفترة من الزمن.. قبل أن ألتقط نفسا عميقا.. ثم أطرح عليها بعض الأسئلة.. وأتأكد أنها مصابة بالاكتئاب بالفعل كما تقول.. كونها فقدت الرغبة بممارسة الالتزامات اليومية الاعتيادية.. كما تصيبها نوبات من البكاء.. مع الشعور بانعدام الأمل.. وتعاني اضطرابات في النوم وصعوبة في التركيز.. والإحساس بقلة القيمة.. إلخ.

في النهاية.. كتبت لها بعض الأدوية المضادة للاكتئاب.. وطلبت منها أن تزورني بعد حوالي شهر لنقف على حالتها.. فأخذَت مني الورقة.. ثم نظرَت إلي نظرة طويلة حزينة.. لتترك مكتبي وترحل.

أما أنا.. فكنت غارقا في أفكاري وأنا أتخيل تلك القصة الغريبة بجانبها الاجتماعي الذي يعتبره مجتمعنا خطا أحمر لا يمكن تجاوزه.. رغم أنني ظننتها في البداية مجرد قصة بوليسية عن اختفاء زوج.. إلا أنه لم يختفِ فعليا.. بل عاد بصورة مختلفة.. مما جعل استمرار علاقاته الزوجية ببطلة قصتنا مستحيلا للأسف.

أنا أسمع!!

تحكيها: (إسراء)

العمر 24 سنة

هناك حقيقة سأعترف بها لأول مرة.. إنني أعاني الاكتئاب منذ سنوات طويلة.. وربما قبل دخولي كلية الطب.. وهذا ليس بالأمر الغريب.. فطبيب القلب ممكن أن يصاب بأمراض القلب.. وطبيب الأسنان قد تصاب أسنانه بالتسوس أيضا.. أعتقد أن طبيب الولادة الاستثناء الوحيد!!!.. لماذا لا أستخدم مضادات الاكتئاب؟!.. لقد فعلت.. لكن من دون جدوى.. فليس بالضرورة أن يعطي الدواء نتائجه المرجوة.. نحن نتحدث عن أدوية تتلاعب في كيمياء الدماغ الذي يعتبر أعقد آلة طبيعية في الكون.. وهذا ما يجعلني أصر على لقاء مرضاي بين الحين والآخر لأعرف تأثير الوصفات الطبية التي أكتبها لهم.

مشكلة الاكتئاب أنه مرض مخادع.. يجعلك ترى السعادة سطحية.. والحزن عمق!!!.. وهذا ما يجعلني قلقا أحيانا كثيرة وأفكر بالعثور على حلول لمشاكلي.. لكني أكتشف فجأة أن مشاكلي غير موجودة أصلا.. وأنني فقط إنسان قلق متوتر من دون سبب!!.. لماذا أقول هذا الكلام؟!.. لأنني كنت أشعر يومها باكتئاب شديد وأنا جالس في مكتبي أثناء نوبتي المسائية.. والهدوء يجعلك تبحث في أعماقك عن أشياء لا تتذكرها عادة في زحمة الحياة.. مما جعلني أتذكر وحدتي القاتلة رغم أنني

صنعتها بنفسي.. وهذا تناقض بشري طبيعي للغاية.. إنني أخشى كثيرا الارتباط بالبشر.. فأي علاقة ستكون غلطة.. أو درسا.. أو ذكرى جميلة.. لأنني واثق أن لا أحد يبقى.

غريب أن أرتدي رداء الأطباء الشهير وأجلس أنتظر أي مريض قد يدخل في أي لحظة.. وعيناي مغرورقتان بالدموع!!.. فشعرت بالخجل وذهبت لأقفل باب الغرفة وإلا ستكون فضيحة.. ثم رحت أبحث سريعا عبر تطبيق (Youtube) عن مكان أنتمي إليه.. أحتاج أن أشحن هذا الحزن لتنطلق دموعي أكثر.. ولا يوجد أجمل وأرق وأنقى من أغنية (جبار).. من حق كل إنسان أن يكون غريبا سخيفا إذا اختلى بنفسه.. وإلا فمتى نتخلى عن وقارنا ونجن؟!.. وحالما ظهر العندليب وهو يغني بألم.. حتى تحولت غرفتي إلى مجلس عزاء مصغر!!.. البكاء على حبيبتي التي لم أعثر عليها بعد.. البكاء على لحظات جميلة عدّت من حياتي.. البكاء على كل ما يستحق دموعي.. كانت ربع ساعة أفرغت فيها ما بجوفي من حزن.. حتى شعرت بالثبات أخيرا.. لأغسل وجهي وأطلب الشاي الأخضر المعتاد من الفرّاش.. وأخرج من ثلاجتي الصغيرة زجاجة ماء بارد قد يطفئ الحريق في قلبي.

أطلقت تنهيدة حارة.. ثم عدت لممارسة حياتي الطبيعية انتظارا لأي زائر.. وهذا يعني أن أقضي هذا الوقت في القراءة.. فأخرجت الكتاب الفلسفي الذي اشتريته منذ يومين.. وبدأت أقرأ.. لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا غارق بين صفحاته.. أحتسي الشاي بين لحظة وأخرى.. قبل أن أسمع تلك الطرقات الهادئة على باب مكتبي.. ليفتح الباب وأجد فتاة تبتسم بسعادة غريبة.. لا يوجد الكثير من المبتسمين الذين يدخلون مستشفى الطب النفسي.. خاصة في وقت متأخر كهذا.

وقفت أمامي بثقة قلما تجدها في إنسان.. كانت متوسطة القامة.. حنطاوية البشرة.. وقد بدت فاتنة بشعرها الذي صبغته بلون بني ينسدل على كتفيها.. وكانت نحيلة بطريقة توحي وكأنها تمارس رياضة ما.

جلست على الكرسي المقابل كعادة كل من يزورني.. وقالت فجأة:

- لقد درستني جيدا بنظراتك!!.

شعرت بحرج شديد.. هل فضحتني نظراتي؟!.. يجب أن أقاوم هذا الانجذاب الطبيعي تجاه أي فتاة جميلة.. وأتذكر أنني

طبيب نفسي فقط.. قلتها وأنا أنزع نظاراتي بارتباك.. حينها فجّرت الفتاة قنبلة جديدة وقالت:

- لم تفضحك نظراتك.. ولا تحتاج أن ترتدي النظارات لتحصل على تقدير الناس كما تظن!!!.

نظرت إليها مصدوما.. يا إلهي.. وكأنها.. وكأنها.. لم أكمل عبارتي.. إذ قالت آخر ما توقعته:

- نعم يا دكتور.. أنا أسمع أفكار الناس!!!.

حسنا.. يجب أن أعترف هنا أنني تراجعت بمقعدي مستنكرا.. لا يمكن أن أصدق هذا الهراء.. مهما بدا حقيقيا.. لتقول مبتسمة:

- ليس هراء يا دكتور.. هذه هي الحقيقة.. وتستطيع أن تضعني تحت ألف اختبار لتتأكد.. والإثبات سيكون سهلا عموما.. سأسمع كل أفكارك.. وأنت أول إنسان يعرف هذه الحقيقة عني بالمناسبة!!.. إنها لحظة تاريخية بالنسبة لك.. لكنك أذكى من أن تكشف السر.. أستطيع نكران كل شيء لو لم تحترم شرف مهنتك.. ولا أظنك من ذلك النوع من الأطباء.. فلدي فراسة لا تخطئ.

سكتُّ طويلا وأنا أحدق بها.. فقد انعقد لساني.. لقد رأيت الكثير في مهنتي.. لكنني كل مرة أُصدم بما هو جديد.. ما هو سقف هذه الغرائب يا ترى؟!.. لترد الفتاة فجأة:

- لا يوجد سقف للغرائب يا دكتور.. ثق بهذا.. خاصة لو كنت مثلي تستطيع سماع أفكار الناس وتعرف أقذر أسرارهم.. الأسرار التي يريدون هم أنفسهم أن ينسوها!!.

شعرتُ بأنني عارٍ تماما أمامها.. فقد سمِعَتْ ما برأسي أيضا.. لتقول وهي تضحك:

- الشعور أنك عارٍ مزعج بالفعل.

انكمشت في مكاني وأنا أقول بضيق يشوبه بعض الخجل:

- هلا كففت عن ذلك أرجوك.. لا تسمعي أفكاري.. أو ادّعي أنك لا تفعلين ذلك على الأقل!!.. إنك تسببين لي إرباكا شديدا!!.

ابتسمت بارتياح لتقول:

- أنت تصدقني إذا.. شكرا لك.

قلت بتوتر وأنفاسي تهبط وتعلو:

- نعم.. لا يمكن أن يكون كل ما قلتِه صدفة أو تخمينا.. ولا أجد أي تفسير آخر سوى أنك تسمعين أفكاري بالفعل.. لكني مصدوم بنفس الوقت.. لم أظن يوما أن مقدرة كهذه موجودة في عالم الواقع.. رغم أنني قرأت عنها كثيرا.. وتمنيت في مراهقتي أن أحصل عليها.. أعتقد أنهم يطلقون عليها لفظة (تيليباثي)*.. إلا أنها ظلت مجرد أحلام صبيانية.. كمن يحلم طوال حياته بالسفر إلى الفضاء ولقاء مخلوقات فضائية!!.. يا إلهي.. لقد أفنى علماء وباحثون حياتهم في سبيل إثبات وجود تلك المقدرة وعجزوا عن ذلك.. في حين تأكدت أنا من وجودها بهذه السهولة!!!.. حقا أن حياتي غريبة.. المهم.. أخبريني.. متى بدأ الأمر؟!.. وكيف؟!.

---

* (التخاطر) (Telepathy) هو الاستماع إلى أفكار الناس -تماما كما تفعل بطلة القصة- أو التحاور بين شخصين بواسطة العقل فقط مهما كانت المسافة بينهما.. أو حتى إرسال رسالة عقلية من شخص لآخر تحت ظروف معينة.. ويعتبر عام 1882 المولد الحقيقي لظاهرة (التخاطر).. حين أعلن عنها الباحث (فريدرك مايرز) (Frederic Myers).. حيث أدى ذلك إلى ظهور العديد من الأبحاث والتجارب الأخرى على يد علماء آخرين في السنوات التالية.. إلا أن العلم لم يعترف حتى الآن بتلك المقدرة العقلية.. وذلك رغم وجود عشرات القصص التي تثير علامات الاستفهام بالفعل.. خاصة تلك التي تحدث بين التوائم.. علما بأن لفظة (Telepathy) مشتقة من اللفظة اليونانية (Tele) وتعني (المسافة).. و(Pathos) وتعني (الشعور) أو (العاطفة).

ردت بهدوء:

- لا أعلم.. إنني أطرح هذا السؤال على نفسي كثيرا.. فبحثت عن أي شيء غير عادي في حياتي قد يكون السبب وراء مقدرتي هذه.. ووجدت أنني لا أختلف عن الناس سوى بطريقة مولدي.. فقد تعرضت والدتي -رحمها الله- لحادث مروري أثناء حملها بي.. وقد كانت ميتة دماغيا* كما علمت.. لكن الأطباء أبقوا على قلبها وتنفسها بواسطة الأجهزة لمدة وصلت إلى حوالي 45 يوما.. وذلك كي يكتمل نموي ويتم إخراجي من جسدها بعملية ولادة قيصرية**!!.. قبل أن يفصلوا عنها الأجهزة ويعلنوا وفاتها

---

* (الموت الدماغي) (Brain Death) هو المصطلح القانوني للموت.. وقد ظهر في ستينيات القرن الماضي.. فيتم اعتبار (الموت الدماغي) تشخيصا كافيا لانتهاء حياة الإنسان قانونيا كي تصدر بحقه شهادة وفاة.. و(الموت الدماغي) هو توقف النشاط الكهربائي للدماغ بصورة كاملة.. بما في ذلك قدرته على التحكم بالوظائف الحيوية.. كالتنفس مثلا.. ولا يمكن طبيا أن يعود الميت دماغيا إلى الحياة.

** (الولادة القيصرية) (Caesarean Delivery) هي الولادة التي يقوم خلالها الطبيب بعملية جراحية بسبب تعذر الولادة الطبيعية التي قد تعرض صحة الأم أو الجنين للخطر.. ويتم تنفيذ العملية من خلال شق البطن والرحم لاستخراج الجنين.. وتعتبر الولادة القيصرية طريقة شائعة في زماننا الحالي لإنجاب الأطفال.. ويقال أنه قد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى القائد الروماني الشهير (يوليوس قيصر) (Julius Caesar) الذي ولد في القرن الـ 100 قبل الميلاد.. حين توفيت والدته أثناء حملها به وهي في شهرها التاسع.. فقاموا بشق بطنها وإخراجه إلى الحياة.. وكلمة (قيصر) باللغة اللاتينية تعني (قطع) أو (شق).. ومن هنا جاءت تسمية (يوليوس قيصر) بهذا الاسم وجاءت تسمية هذا النوع من الولادة.

رسميا.. أمر كهذا لا أظنه حدث من قبل مع أحد!!.

قلت مصححا:

- بل حدث لسيدة بولندية منذ سنوات قليلة!!.. فقد كانت ميتة دماغيا طوال 55 يوما.. لكنهم أبقوا على حياتها بواسطة الأجهزة أيضا كي تضع مولودها.. وقد نجحوا في ذلك*.. هل هذا يعني أن مولودها عندما يكبر سيكون قادرا على سماع أفكار الناس كما حدث معك؟!.

هزت كتفيها كناية عن عدم علمها أو حتى اهتمامها بذلك.. ثم سكتنا طويلا وقد حاولت جاهدا ألا أفكر بشيء يكشف شخصيتي أمامها.. فأنت تخسر الكثير إذا عرف الناس أسرارك!!.. وهذا جعلني أتساءل.. إن أدمغتنا بمثابة الحصن المنيع لأسرارنا.. فماذا سيكون الحال لو تمكن أحدهم من اختراقها كما تفعل هذه الفتاة.. لا شك أنها تسمع أفكاري الآن.

قلت مغمغما وأنا لم أستوعب الصدمة بعد:

- لو أخبرت أقرب الناس لي لما صدقني!!.

---

* واقعة حقيقية حدثت عام 2016.. حيث كان وزن المولود كيلو جراما واحدا فقط!!.. لكن الأطباء حافظوا على حياته بعناية فائقة ومكثفة.. إلى أن وصل وزنه لمعدل معقول بعد حوالي 3 شهور.

ردت ضاحكة:

- لا يوجد أحد قريبا منك.. لقد سمعت أفكارك منذ لحظات.. أنت وحيد لا تملك أي صديق أو إنسان تثق به.. حتى أفراد عائلتك تعتبرهم عبئا عليك لأنهم يختلفون عنك كثيرا.. أووه.. آسفة.. وعدتك ألا أكشف لك ما سمعته من أفكارك!!.

يا إلهي.. هل طرأت بذهني كل هذه الأفكار منذ زيارتها لي؟!!.. لم أشعر أنني فكرت بكل هذا.. لا يمكن أن تكون قد عرفت أسراري هذه من شخص آخر مثلا.. أحاول أن ألتقط أنفاسي.. ثم أتنحنح وأنا أنظر إليها بانبهار.. لأسألها:

- كيف تتعاملين مع الأمر؟!.. وهل يوجد آخرون غيرك؟!.. وهل....

قاطعتني بهدوء وكأنها هي الطبيب النفسي.. لتجيب:

- ستعرف كل شيء يا دكتور.. عليك بالصبر قليلا.. أعرف أنني بالنسبة لك حالة نادرة جدا.. وإن كنت قد سمعت بعض الأفكار التي طرأت في ذهنك منذ دخولي هنا وأنت تستذكر بعض الحالات السابقة.. يبدو أنك مررت بالكثير بالفعل.. وإلا لما صدقتني بهذه السهولة.. ولطالبت

بإثباتات أكثر.. المهم.. اسمي (إسراء).. إنني في الـ 24 من العمر.. وكما قلت لك.. أنت أول إنسان في العالم يعرف هذا السر الذي أحتفظ به منذ طفولتي.. لقد كان الأمر غريبا حين كنت أستمع إلى أفكار أفراد أسرتي وكل من أقابله.. فأراهم يتحدثون بأمور يفترض ألا تقال أبدا.. ثم أكتشف أن شفاههم لا تتحرك.. لم يتطلب الأمر كثيرا لأكتشف الحقيقة رغم سني الصغيرة آنذاك.. إنني أنا وحدي أسمع أفكار الناس!!.. ولم ألتق أبدا بآخرين يمتلكون هذه المقدرة!!.

سألتها مستغربا:

- ماذا عن والدك؟!.. لماذا اخترت عدم إخباره بأسرارك؟!.. هذا التصرف غير مألوف لطفلة؟!.

قالت بألم:

- لأنني لم أثق بوالدي أبدا.. فهو يحمل عقلية ذكورية متحجرة للأسف.. إنه عنيف قاس جدا.. حتى أنني رأيته يضرب شقيقتي الكبرى ذات مرة بطريقة مقززة لأنها كانت على علاقة بشاب.. كنت حينها في السابعة فقط.. ولك أن تتخيل تأثير ذلك المشهد علي وأنا أرى وجهها مليئا

بالكدمات والخدوش لأيام.. قبل أن تتعافى تدريجيا.. لحسن الحظ أنها كانت في الإجازة الصيفية.. فلم يرَ أحد جروحها.. هذه الحادثة هزت حياتي بأكملها.. مما جعلني أخشى أبي كثيرا.. وأنه قد يتحول إلى وحش لو أخطأت.. رغم أنه يمارس أقذر الأخطاء.. فقد كنت أعرف فضائحه بأكملها.. وأعرف علاقاته القذرة مع بائعات الهوى.. مشكلة حين يرى الرجل أن شرفه يكمن في بناته!!.. إنسان كهذا عديم الشرف.. لأنه قد يفعل كل الموبقات الأخرى.

مؤلم كم تعاني الأنثى في مجتمعاتنا.. لهذا هي المعرّضة أغلب الأوقات للأمراض النفسية.. ولهذا معظم من يزورني من الجنس اللطيف كما أردد دوما.

سكتنا قليلا.. فقرأَت كل أفكاري على الأرجح.. وهذا ما جعلها تكمل:

- هكذا كان الحال.. أب يركض خلف ملذاته.. ثم يتحول إلى وحش حين يتعلق الأمر بأخطاء بناته.. أما أمي فلم ألتق بها أبدا.. لقد أخبرتك كيف توفيت.. كان هذا بعد أن أنجبت 4 فتيات أصغرهم أنا بطبيعة الحال.

سألتها بتأثر:

- كيف حال أفراد عائلتك الآن؟!.

أجابت بارتياح:

- جميع شقيقاتي متزوجات.. أما أنا.. فقد أصبحت مسؤولة عن نفسي.. خاصة بعد أن أصيب أبي بأمراض كثيرة جعلته طريح الفراش معظم الوقت.. ليتحول إلى رجل ضعيف عاجز لا يستطيع فرض أي شيء كما كان يفعل في السابق.. وهناك ممرض يعتني به طوال الوقت.. ولا أنكر بالطبع أن مقدرتي العقلية هذه جعلتني أنعزل كثيرا عن الناس.. حتى شقيقاتي.. فكل أسرارهن كانت تصلني أولا بأول.. وهذا أيضا ما جعل علاقات الحب أمرا مستحيلا تقريبا بالنسبة لي.

سألتها بطريقة ذات مغزى:

- لا شك أنك كنت متفوقة جدا في دراستك!!.

ضحكت وهي تجيب:

- جدا.. بل وكنت أتعمد الخطأ أحيانا كي لا أحصل على درجات كاملة في جميع المواد خوفا من إثارة الانتباه..

لقد كنت أكتفي بالجلوس في الفصل أو قاعة الاختبار وأسمع الإجابات في أفكار كل الطالبات حولي.. كأنك تتحدث عن 30 طالبة يقمن بحل ورقة اختبار واحدة.. لذا فالنجاح بتفوق مضمون.. سمّه غش إن أردت.. لا يهمني هذا كثيرا بصراحة.

سألتها باستغراب:

- لكن هذا يعني ازدحام عقلك بأفكار الناس طوال الوقت!!.. الأمر مرهق جدا.. وكأنك وسط مجموعة من البشر الذين يصرخون باستمرار.. مما يتطلب منك عزلة كاملة.. أليس كذلك؟!.

قالت مبتسمة:

- بالفعل.. لقد كان الأمر كذلك في طفولتي.. لكني تمكنت من ترويض قدرتي هذه مع مرور الأيام.. وبت لا أسمع إلا من أريد الاستماع إلى أفكاره.. تماما كقدرتك على تحريك يدك.. تستطيع تحريكها.. وتستطيع إبقاءها في مكانها.. علما بأنني لا أستطيع سماع أفكار إلا من هم في نطاق بصري.. ولا أفهم السبب.

وكأنني صحفي يدير دفة حوار شيق.. إنني أستمتع بكل ما أعرفه عنها.. فسألتها وقد تذكرت أهم نقطة:

- وما سبب زيارتك لي يا ترى؟!!.

تنهدت.. ثم قالت:

- لأنني مررت بتجربة مؤلمة مؤخرا.. وأردت أحدهم أن يشاركني أحداثها.. الاحتفاظ بالسر عملية مرهقة يا دكتور.. إنني أحتاج أن يعلم أحد بما حدث.. لقد فكرت باللجوء إلى شخص لن يراني سوى مرة واحدة.. ولم أجد أفضل من الطبيب النفسي.

ابتسمت لا شعوريا وأنا أشير إليها أن تكمل.. و:

- يجب أن تعرف أولا أن أبي خسر كل أمواله في مشروع تجاري منذ سنوات.. فاضطر لبيع البيت كي يسدد ديونه.. لينتهي بنا المطاف في شقة بمنطقة (الزهراء).. حيث يسدد إيجارها من راتبه التقاعدي.. أما أنا فأعمل في إحدى شركات النفط.. وأحصل على دخل محترم كحال العمل في القطاع النفطي.. كما ترى.. حياتي هادئة.. وإن كنت كرهت البشر بسبب ما عرفته عنهم.. فأصبحت معدومة الصديقات.. وهذا متوقع من فتاة تسمع أفكار الناس وتعرف خباياهم.

سكتت للحظة واعتدلت في جلستها.. ثم:

- لقد بدأت القصة حين انتقل رجل أعزب في أوائل الخمسينيات من العمر إلى الشقة الموجودة في الطابق الأرضي.. وأنت تعرف أنه لا يسمح للعزاب في (الكويت) بالسكن قرب العوائل.. لكني سمعت المالك وهو يخبر أبي أن الجار الجديد هذا قريب له.. وهو رجل في حاله ولا يؤذي أحدا.. وليس من النوع العابث الذي سيستغل المكان للرذيلة.. فعلينا ألا نقلق.. لذا أهملت الأمر.. وبت أرى الرجل بين الحين والآخر حين أخرج من شقتنا أو أعود إليها.. ولم يفتني أنه كان ينظر إلي بشيء من الإعجاب.. إنه أمر اعتدته بصراحة.. ويجب أن أعترف هنا أن أفكار الرجال الذين ينظرون إلي أجدها دوما سوداء مخجلة.. أما هذا الرجل.. فلم يحمل في أفكاره سوى التغزل البريء والإعجاب بجمالي وأنوثتي.. وقد ألقيت عليه أكثر من نظرة بدوري.. إنه نحيل الجسد.. مقبول الملامح.. امتلأ شعره بالشيب.. لكن وجهه جامد بشكل غريب.. من الصعب أن تعرف إن كان سعيدا أو حزينا.. حتى بدا وكأنه أكبر من عمره بسنوات طويلة.

سألتها باهتمام:

- إلى جانب إعجابه بك.. ألم تسمعي بقية أفكاره؟!.

أجابت مبتسمة:

- لقد فعلت.. لكني لم أجد فيها ما يشين.. مجرد أفكار عادية لا تستحق الذكر.. فلا تنسَ أن لقاءاتنا لم تكن تتجاوز الثواني.. المهم.. بعد أسابيع طويلة من انتقاله لشقته الجديدة.. وحين كنت عائدة ذات يوم من أمسية كانت قد نظمتها شركة النفط في أحد الفنادق.. صادفت جارنا هذا الذي كان عائدا بدوره من مكان ما.. لم أعره أي انتباه.. لكني شعرت به وهو يقف قليلا ليتأكد أن لا أحد يرانا.. ثم قام بمناداتي بشيء من الحرج.. نظرت إليه من دون أن أجد الوقت لأسمع أفكاره.. ليوجه لي ذلك السؤال الذي يصدم أي فتاة حتى لو كانت تتوقعه.. لقد سألني إن كنت مرتبطة!!!.. فسكت قليلا لأستوعب الموقف.. ثم أجبته بالنفي.. ليخبرني سريعا برغبته بالزواج مني!!.. حسنا.. يجب أن أؤكد لك هنا أنني أخشى الارتباط كثيرا.. وأنت تعرف السبب يا دكتور.. إنها ضريبة موهبتي.. كيف سأتزوج رجلا سأعرف أدق أسراره؟!.. أنت تعلم أن

هناك أسرارا لا يمكن أن يكشفها الإنسان لأحد.. بل يحاول هو نفسه أن يركنها في بقعة منسية من عقله كي يستطيع أن يمارس حياته العادية.

غمغمت:

- فعلا.. مسألة شريك الحياة بالنسبة لك عسيرة للغاية وربما مستحيلة.

أشارت إلي بسبابتها وكأنها تشيد بفهمي لها.. لتضيف:

- وهذا ما جعلني أخبره صراحة أنني لا أفكر بالزواج.. فبدت خيبة الأمل على وجهه.. ثم ذكر شيئا في أفكاره عن حظه السيئ.. لذا تركته متجهة إلى شقتي.. لكن يبدو أن الرجل لا ييأس.. إذ اتصل بي ذات مرة.. وأخبرني بلهجة يشوبها الاعتذار أنه حصل على رقم هاتفي من إحدى تطبيقات الهاتف.. وطلب مني أن أمنحه الفرصة لأعرفه جيدا.. فربما أوافق على الارتباط به!!.. المشكلة في المكالمات الهاتفية أنني أعجز خلالها عن قراءة أفكار الناس.. يجب أن يكون الشخص في محيط بصري كما ذكرت.

قلت مخمنا:

- أعتقد أنك قررت منحه الفرصة.. أليس كذلك؟!.

أومأت برأسها إيجابا وهي تقول:

- لا أعرف لماذا شعرت بالانجذاب ناحيته.. هل لأنها المرة الأولى التي أتحدث فيها مع أحدهم من دون المقدرة على اختراق أفكاره؟!.. فجميع من يحاولون كسب ودي يفعلونها في أماكن عامة.. أو حتى من ضمن زملاء العمل الذين كرهتهم جميعا بسبب ما عرفته من أسرارهم.. أما هذا الرجل.. فهو أول من يتصل بي من دون سابق سماع أفكار إن صح التعبير!!.. كما أنني أميل للرجال كبار السن بصراحة.. وكنت أحلم دوما أن أجد في أحدهم ما افتقدته في والدي.

تنحنحَتْ وهي تطلب كوبا من الماء.. فنهضتُ من مكاني إلى ثلاجتي الصغيرة.. وأعطيتها زجاجة ماء رشفت منها قليلا وهي تشكرني.. لتكمل:

- بدأت من هذه المكالمة نبتة علاقة كان الدافع وراءها بالنسبة لي الغريزة البشرية.. أن تكون لي علاقة مع الجنس الآخر.. غريب أن المرء لا يعيش نصف حياة..

بل حياة كاملة.. ومع ذلك يشعر أنها غير مكتملة مهما ادّعى عكس ذلك.. فيحتاج إلى شخص آخر كي يشعر بذلك الاكتمال!!.. كما أنني كنت أتمنى أن أتذوق إكسير الحب السحري.. إن الحب لا يجعل الحياة جميلة.. وإنما يجعل البشاعة خارج نطاق الرؤية.. المهم أن مكالماتنا هذه كانت تمتد لساعات طويلة.. عرفت خلالها أن الرجل متقاعد.. وقد طلق زوجته منذ سنوات لأنه لا ينجب للأسف!!.. فانتهى به المطاف وحيدا.. وهذا ما جعل عمره يصل إلى بدايات الخمسينيات من دون زواج.. لكنه رآني وشعر بانجذاب عميق تجاهي على حد قوله.

قلت مبتسما:

- العلاقة الهاتفية سهلة وطبيعية كما يبدو بالنسبة لك.. لكن مؤكد أنك ستلتقين بالرجل في آخر المطاف.. حينها ستكون المواجهة وكشف أسراره.. وأعتقد أن هذا سبب زيارتك.

نظرت إلي بإعجاب لتخميني.. فأردفت:

- في واقع الأمر كنت أحاول تأجيل لقائي به.. لأستمتع بمكالماتنا الهاتفية على الأقل.. عاملة في قرارة نفسي

أنني لن أتزوجه.. إلا أنني في النهاية خضعت لإلحاحه الشديد.. ووافقت على لقائه في مقهى (ستار بكس) في فندق (النخيل).. حيث جلسنا مساء ذلك اليوم نتحدث.. فكان يبدو سعيدا للغاية كونه يجلس معي.. وبدا رجلا ناضجا ومحل ثقة.. ثم أنه لا يريد من الحياة شيئا.. فقد وصل لمرحلة مريحة نسبيا من حياته.. إنه يحبني فقط.. ويريدني أن أكون زوجته.

قلت ضاحكا:

- لا شك أنه لاحظ شرودك بين الحين والآخر.. كونك ظللت تحاولين الاستماع إلى أفكاره طوال وجودك معه!!.

ابتسمَتْ في إعجاب وهي تقول:

- إنك حقا ذكي.. بالفعل.. كنت أصمت أحيانا.. ويبدو علي الشرود الذي سألني عن سببه أكثر من مرة.. لأرد عليه مغمغمة أن هذا أحد طباعي.. والحقيقة أنني لم أجد في عقله ما يشين على الإطلاق.. مما جعل لقاءاتنا تتكرر.. حتى أنني تعمدت مقابلته في مكان يزخر بالفتيات الجميلات لأرى ردة فعله.. أو ردة فعل أفكاره إن صح التعبير!.. لكنه كان خاضعا لي.. يراني أنا فقط ولا يلتفت

لغيري.. لقد أحبني بصدق.. وأخبرني بنفسه أن الحب في هذه السن مختلف.. لأنه يأتي عن قناعة لا يشوبها التهور أو طيش الشباب.. وقد كانت هذه اللقاءات مقدمة لما حدث بعد ذلك.. حين أخبرني في مكالمة هاتفية أنه سيزور والدي ليطلبني منه.. ولا أنكر أن هذا أفرحني كثيرا.. فقد بدا لي الزوج المناسب.. خاصة وأن حياته السابقة لا تحوي الكثير من الأخطاء أو طيش الشباب.. هذا ما عرفته من خلال كلامه.. وأفكاره.

سكتت قليلا لتتنهد.. ثم قالت:

- المهم أنه زار شقتنا في اليوم التالي برفقة شقيقته الوحيدة.. حيث طلبني رسميا من والدي الذي كان بلا حول ولا قوة بسبب الأمراض التي فتكت به.. فوافق والدي مباشرة بعد أن علم برغبتي بهذا الرجل.. وكانت هذه ربما أسعد لحظات حياتي.

قلت مازحا:

- ليس من المفترض أن يتغير شيء.. ستتزوجين منه وتنتقلي معه إلى شقة الدور الأرضي.

ضحكت موافقة لكلامي.. ثم أردفت:

- بالضبط.. لهذا تم كل شيء بسرعة.. ولم أكن من الفتيات اللاتي يرغبن بحفل زفاف.. لأن هذا سيعني اختراق عقول المدعوات.. ورؤية أسوأ ما فيهن من حقد على جمال هذه وسخرية من تلك.. فكان الاحتفال بسيطا للغاية.. وقد ظللت أحاول الاستماع إلى أفكار زوجي أثناء الحفل.. لكني -كما هو الحال منذ عرفته- لم أجد ما يثير الاهتمام إطلاقا.. و.. بعد أسابيع قليلة.. طرأت في ذهني فكرة.. أن أسمع أفكار زوجي قبل لحظات نومه!!.. ففي هذه الأثناء يصبح الليل بمثابة شاشة عرض لذكرياتك.. إنه الوقت الوحيد الذي تعود فيه إلى رأسك.. حيث الأفكار ما تزال مضيئة رغم النعاس.. قبل أن تخبو تدريجيا ويذهب وعيك إلى عالم الأحلام.. لقد فعلت ذلك كثيرا حين كنت أشارك شقيقاتي غرفهن.. وكرهتهن للأسف بعد أن سمعت كل أفكارهن.. فحاولت الأمر ذاته مع زوجي أكثر من مرة.. إلا أن أفكاره كانت عادية في البداية.. ثم جاءت تلك الليلة.. حين كان مستلقيا على السرير ينظر إلى الناحية الأخرى.. أما أنا فكنت أنظر إليه بتركيز شديد كي أسمع أفكاره.. لتحدث المفاجأة!!.

سألتها فجأة:

- مهلا.. كيف تستطيعين تمييز حديث الأفكار من حديث اللسان؟!.. خاصة أنه كان نائما على الجانب المعاكس لك كما تقولين!!.

غمغمت بكلمات الإشادة لدقة ملاحظتي.. ثم قالت:

- حين أسمع أفكار أحدهم.. فإن الكلام يتردد على مسامعي وكأنه صدى يأتي من واد عميق.. لقد اعتدت ذلك.. المهم أن عقله قال شيئا مرعبا.. فقد ارتكب زوجي جريمة قتل بحق ابنته!!!.. وبطريقة ما تمكن من الإفلات من دون عقاب.. بسبب ثغرة قانونية ربما.. أي أنه كان يكذب علي حين أخبرني أنه لا ينجب!!!.. وبسبب ارتكابه لهذه الجريمة.. طلبت زوجته الطلاق.

نظرت إليها بذهول.. لتكمل هي بألم:

- لم أكن أعرف دوافع الجريمة.. فعقله لم يخض في تفاصيلها.. ربما كانت جريمة شرف.. لا أعلم.. لقد شعرت حينها أنني وقعت في مأزق.. فكيف سأواجهه بما عرفت؟!.. وهل أواجهه أصلا؟!.. أم أطلب الطلاق؟!.. قد تقول أنه ربما تغير بعد كل هذه السنوات!!.. هذا صحيح.. خاصة حين

سمعت أفكاره وهو يلوم نفسه.. لكن.. هل تقبل أي فتاة الزواج من رجل ارتكب جريمة قتل وتاب بعد ذلك؟!.. ثم كيف لم تطرأ حادثة كهذه في عقله منذ تزوجنا؟!.. الأمر يثير التساؤلات كما ترى.

نظرت إلى السقف وأنا أرسم في عقلي توقعات كثيرة لما قد يحدث.. لا شك أن (إسراء) سمعت كل أفكاري.. فاحتفظت بها لنفسي.. لتضيف:

- كانت أياما عسيرة.. لم أعرف خلالها كيفية التصرف.. وأنا أسمع أفكاره حين ظل يستذكر بعض تفاصيل الجريمة.. كانت مرعبة مليئة بدماء ابنته التي لوثت ثيابه تماما!!.. وهذا ما جعلني أنفجر أخيرا ذات يوم.. وأخبره بما عرفته عنه.. بعد أن لاحظ أنني بدأت أتجنبه مؤخرا.. وأن مزاجي لم يعد كما كان في السابق.. هذه طبيعتي يا دكتور.. أنا لا أبتعد.. لكن أتغير.. فأجعلك تبحث عني وأنت معي!!.. و.. انهار فجأة حين أخبرته باسم ابنته من خلال استماعي لأفكاره.. ثم راح يبكي بحسرة وندم وهو يسألني عن كيفية علمي بكل هذا!!.. لم أخبره بمصدر معلوماتي بالطبع.. فقط اكتفيت بالوقوف أمامه لأطلب

منه الطلاق بكل حزم.. وعبثا حاول التوسل إلي وإقناعي بالبقاء وأنه يشعر بالذنب أصلا لما فعله.. لكني كنت عنيدة جدا.. فخرجت من شقته عائدة إلى شقة أبي الذي أخبرته بوجود خلاف شديد بيني وبين زوجي.. وأن زواجنا قد ينتهي.. كنت شديدة الوضوح.. إنني فتاة قوية يا دكتور ولا أتراجع عن قراراتي!!.. فتم الطلاق بعد حوالي شهر.. إذ كان زوجي في أسوأ حال بعد أن كشفت أمره.. وقد رحل من شقته بعدها بفترة بسيطة إلى جهة غير معلومة.. ولم يهمني هذا كثيرا في واقع الأمر.

سكتت قليلا.. ثم قالت بحزن:

- المشكلة أن حياتي اتخذت منحى جديدا يا دكتور.. فبعد سنة تقريبا لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.. واجهتني أعراض صحية لم أفهمها.. تقيؤ مستمر.. فقدان الإحساس بحركة الساق بشكل تدريجي.. اضطرابات في الرؤية.. حالات إغماء!!.. حدث كل هذا في فترة سريعة جدا.

قلت بقلق:

- قد تكون هذه أعراض وجود ورم في المخ!!.

ردت بحزن:

- بالضبط.. لقد ورثته من جدتي رحمها الله!!.. للأسف كان الورم متمكنا من رأسي ويحتاج إلى عملية جراحية عاجلة.. هذا ما قاله الطبيب بعد أن جاءت بي إحدى شقيقاتي إلى المستشفى!!.

كانت هذه نقلة لم أتوقعها أبدا في القصة.. فنظرت إليها بذهول وهي تقول:

- المشكلة أن فرصة العلاج في الخارج تتطلب الكثير من الإجراءات الإدارية.. في حين أكد لي الأطباء أنني أحتاج جراحة عاجلة.. ولا داعي أن أخبرك أن حالتي ساءت كثيرا في فترة قياسية كحال المصاب بورم خبيث في رأسه يتم اكتشافه متأخرا.. فلَم أجد المفَر من الموافقة على إجراء الجراحة في (الكويت).. لتتم العملية التي كانت نسبة نجاحها ضئيلة أصلا.. أي أنه كان بالإمكان ألا أستيقظ أبدا ليلتها.. لكني استيقظت.. فأدركت في قرارة نفسي أنني نجوت.. كنت أشعر بإنهاك شديد للغاية.. إلا أنني التقطت كلمات الطبيب وهو يخبرني بابتسامة عريضة أنني بخير الآن.. وسأحتاج إلى راحة طويلة قبل أن أتمكن

من استعادة صحتي كاملة!!.

سكتنا معا للحظة.. ثم قالت بأسى:

- لم أتمكن من التحدث وقتها.. لكني كنت أعي ما يدور حولي.. فسمعت صوت شقيقتي الكبرى تخبرني بدموع الفرح أنني نجوت.. بعد أن تم استئصال الورم بعملية جراحية استغرقت ساعات طويلة.. وأنني يجب أن أشكر الطبيب الذي أقدم على هذه المغامرة.. قالتها وهي تشير إلى طبيب آخر يقف بعيدا نسبيا عن فراشي وخارج نطاق بصري.. فاقترب ليعرفني بنفسه.. لأجد أنه.. طليقي!!!.

اتسعت عيناي دهشة وأنا أسألها:

- لم أفهم شيئا.. لم تخبريني أن طليقك كان جراحا!!.

قالت مبتسمة:

- لأنه أخفى ذلك عني.. فقد أخبرني قبل زواجنا أنه خريج كلية العلوم.. ولم أهتم كثيرا للتأكد من كلامه كونه متقاعدا.. ثم.. فوجئت به ينحني تجاهي بعينين مغرورقتين بالدموع.. نعم.. كان يبكي.. حتى أن زميله الجراح تحدث بخفوت ليقول أن العملية كانت صعبة للغاية.. ولم تكن لتنجح

لولا طليقي.. كونه من أعظم جراحي المخ كما وصفه زميله الذي تركنا ليغادر الغرفة مع شقيقتي.. لأبقى وحدي مع طليقي الذي أخبرني بالحقيقة كاملة.. أنه قام بإجراء عملية جراحية شبيهة لابنته منذ سنوات.. لكنها توفيت بين يديه ولم يتمكن من إنقاذها.. فكانت عقدة الذنب تطارده طوال الوقت.. خاصة وأن زوجته راحت تتهمه بعجزه وبقتل ابنتها الوحيدة.. لذا انهارت حياته بأكملها.. وتوقف عن ممارسة الجراحة منذ ذلك الحين.. إلا أنه خاطر بكل شيء بعد أن أخبره زميله عني.. وعن حاجته لخبراته من دون أن يعرف صلة القرابة بيننا!!.

اغرورقت الدموع في عيني لا شعوريا.. لكني سيطرت على نفسي سريعا.. وابتسمت متعاطفا معها وأنا أسألها عن حالها بعد العملية.. فردّت:

- إنني بخير.. بعد أكثر من سنة من النقاهة والاهتمام الشديد بصحتي.. حيث ساعدني زوجي الحبيب على ذلك بعد أن عدت إليه.. كان هذا السر الذي يخفيه عني.. فهو لم يقتل ابنته كما ظننت حين سمعت أفكاره.. بل شعوره بالذنب جعله يتهم نفسه بذلك!!.. وكان يلوم القانون

لأنه لم يعاقبه.. وقد فعل كل شيء ليتجاوز خسارة ابنته وطلاقه من زوجته.. فخضع للعديد من جلسات العلاج النفسي.. وتناول مضادات الاكتئاب بانتظام.. لهذا لم تكن الحادثة لتطرأ في ذهنه كثيرا كما هو مفترض.. وقد فسرت أفكاره بطريقة خاطئة.. لأنني سمعتها من منظوره هو بطبيعة الحال.

قلت باهتمام:

- يبدو أنك لم تفقدي قدرتك على قراءة الأفكار رغم العملية الجراحية.

ضحكت قائلة:

- بالطبع لا.. وإلا لما قرأت أفكارك قبل قليل.

سألتها مبتسما:

- أنا سعيد للغاية لنهاية قصتك بهذه الطريقة.. لكن لماذا أنت هنا؟!.. تبدو لي الأمور بخير وأنك سعيدة مع زوجك.

قالت بهدوء يوحي بالسلام الذي تعيشه مع نفسها:

- إنني أسعد فتاة في العالم.. لا أنكر أنني أسمع أفكار زوجي بين الحين والآخر.. لكني لا أجد فيها ما يشين.. إنه

رجل نادر.. يستحيل أن تجد مثله.. وقد وعدته بالإنجاب خلال الفترة القادمة بإذن الله.. أما عن سبب زيارتي.. فقد ذكرته لك في البداية.. كنت بحاجة لمن يسمعني.. أنت الوحيد الذي تعرف بمقدرتي العقلية هذه.. ولا أخشى إخبارك بهذا السر كونك لن تراني مرة أخرى.. لا أريد أن يعرف أحد حقيقتي.. ولا حتى زوجي نفسه.

سألتها باهتمام:

- بكل تأكيد أنك قرأت أفكار العشرات من الناس.. وربما المئات.. ما هو أهم ما تعلمتِه؟!.

سكتت قليلا وكأنها فوجئت بسؤالي.. ثم قالت بابتسامة عريضة:

- سأخبرك بنصيحة قد تفيدك.. لا تهتم بآراء الآخرين عنك.. فهم سيبتسمون في كل الحالات!!.. صدقني.. أقولها لك بكل ثقة.. وأنصحك أيضا أن تحتفظ بأسرارك لنفسك.. وإلا سيأتي اليوم الذي يستغلها الطرف الآخر ضدك.

سألتها مرة أخرى:

- لماذا لا تخبرين زوجك عن موهبتك إذا كنت تثقين به إلى هذا الحد؟!.

أجابت بصدق:

- إنني أثق به بالطبع.. لكني لا أثق إن كانت حياتنا ستستمر بصورتها الطبيعية لو عرف عني هذا السر.. كل إنسان يفقد بريقه حين يكشف الطرف الآخر خباياه.. مهما كانت درجة القرابة بينهما.

لم أرد على كلامها.. بل شعرت -بصراحة- بشيء من الغيرة لهذه المقدرة.. تخيل أنك تستطيع سماع أفكار الناس.. حينها لن يخدعك أحد.. وستكشف حقيقة أي إنسان.. رغم أنك قد تخطئ في تفسير بعض الأفكار التي تسمعها.. كما حدث مع (إسراء).. ويبدو أنها سمعت أفكاري.. إذ ضحكت وهي تخبرني أنها تشعر بالفعل بتميزها واختلافها عن الجميع.. مما جعلني أبتسم خجلا.. لتنهض من مكانها.. وتصافحني بحرارة وهي تؤكد أنها تشعر بحالة نفسية أفضل بعد هذه الفضفضة البسيطة.. ثم التفتت متجهة ناحية الباب بذات الخطوات الواثقة الجريئة.. لأظل أنا في مكاني عالما أن هذه القصة تستحق أن تكون بأرشيفي الخالد.. أرشيف الحالات النادرة!!.

خاتمة

ها قد وصلنا إلى ختام هذا الجزء.. لقد حاولت التنويع قدر المستطاع كي لا أصيبكم بالملل.. فكانت أجواء القصص مختلفة.. اجتماعية وبوليسية ومرعبة.. مع جرعة من الخيال العلمي.. ولا ننسى الكثير من المصطلحات العلمية والطبية التي آمل أن تكون قد أثرَت معلوماتكم.

أما أنا.. فما زلت كما عرفتموني منذ الجزء الأول.. ولا أظن أنني سأتغير.. ما زلت أعتبر نفسي أحمق.. نعم.. فهذا ما يجعلني أبحث وأقرأ وأتعلم.. وإلا سأصاب بذلك التأثير النفسي الذي يقول أن الحمقى لا يعلمون بحماقتهم.. ويظنون أنفسهم عباقرة.. في حين أن العباقرة هم الذين يقللون من شأن ذكائهم دوما.. أي أن العبقري يعيش حياته في شك وبحث مستمرين.. على عكس الأحمق الذي يشعر بالرضا عن نفسه طوال الوقت*.

لقد اعتدت القلق.. فأصبحت الطمأنينة تقلقني أكثر!!.. أعلم

---

* حالة نفسيه حقيقية.. ويطلق عليها (تأثير دَنينج - كروغر) (Dunning-Kruger Effect) حيث وصفها لأول مرة عالما النفس (جستن كروجر) (Justin Kruger) و(ديفيد دَنينج) (David Dunning).

أنه من الجنون أن تعمل وتعمل باستمرار.. لكن هذا ثمن النجاح لتكون الأفضل.. إنني أحاول صنع أفضل نسخة ممكنة مني.. وكل من يقرأ كلماتي يستطيع فعل الشيء ذاته بالطبع.. فلا أعني بكلامي أنني عبقري.. بل مجتهد جدا.. إلا أن هناك جانبا نفسيا يقتلني.. حاجتي لأن يكون هناك من أثق به ويفهمني كي أقضي معه بعض الوقت بين الحين والآخر.. وهذا ما لم يحدث حتى الآن.. أما بخصوص الحب.. فربما أنا لا أبحث عن حب حياتي.. وإنما عن حياتي نفسها!!.

أعتقد أن علي معالجة جراحي النفسية بنفسي.. سأكون مثل الطبيب الروسي الراحل (ليونيد روجزوف) (Leonid Rogozov) الذي كان في بعثة روسية في القارة القطبية الجنوبية عام 1960.. حين اكتشف تضخم زائدته الدودية -ومن ثم احتمالية انفجارها في أي لحظة- مما جعله يجري لنفسه عملية جراحية بمخدر موضعي كونه الطبيب الوحيد الموجود في البعثة*.

ورغم كل شيء.. أشعر بالفخر.. كوني أعرف ما لا يعرفه الكثيرون.. وهذا ما يجعلني أعشق مهنتي التي أعتبرها السبب الحقيقي خلف كل ما عرفته من أسرار في هذا العالم.. أنا الذي

---

* حقيقة.

لم أكن أفقه من علم النفس في مراهقتي سوى ثلاثية (الهُوَ) و(الأنا) و(الأنا العليا)*.. ولم أكن أظن للحظة أنني سأصل إلى ما وصلت إليه.

سأستمر في الكتابة ونقل تجاربي كطبيب نفسي.. عالما أن رغبتي الدائمة بإصلاح الناس قد تفسدني.. وأنني أعيش عشوائية مرتبة إن صح التعبير.. ربما علاجي الوحيد أن تكون كل الأوقات منتصف الليل!!.. إنها أوقات الأمان والحزن اللذيذ بالنسبة لي.. ما فائدة الحزن؟!.. إنه يجعلنا نكتب.. وأنا أعلم أن حزني لن يتوقف.. لذا أنا واثق أنه ستكون هناك أجزاء أخرى.. فما زال في جعبتي الكثير لأقوله.. لكني أجهل متى سيكون الجزء القادم.. لنترك هذا للظروف.. آملا ألا أكون ضيفا ثقيلا عليكم.

الدكتور (.......)

* (الهُوَ) (Identity).. و(الأنا) (Ego).. و(الأنا العليا) (Super-Ego).. هي 3 مصطلحات شهيرة جدا قدمها عالم النفس الشهير (سيغموند فرويد) (Sigmund Freud) ليصف أقسام النفس البشرية.. فـ(الهُوَ) الفطرة والغرائز.. و(الأنا) عادات وصفات الإنسان.. أما (الأنا العليا) فهي القيم والمبادئ.. وتعتبر شخصية الإنسان حصيلة التفاعل بين هذه الأقسام الثلاثة.

الفهرس

إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)
2) خلف أسوار العلم (2002)
3) الأبعاد المجهولة (2004)
4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)
5) في الجانب المظلم (2008)
6) حكايات من العالم الآخر (2008)
7) 17 (2008)
8) زيارات ليلية (2009)
9) رسائل الخوف (2010)
10) بعد منتصف الليل (2012)
11) منطقة الغموض (2012)
12) حالات نادرة (2012)
13) حالات نادرة 2 (2013)
14) حالات نادرة 3 (2014)
15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)
16) متحف الأرواح (2015)
17) حالات نادرة 4 (2016)
18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)
19) مخطوطات مدفونة (2018)
20) ملاذ (2018)
21) المُعقَّد (2019)
22) حالات نادرة 5 (2020)
23) جرعة زائدة (2020)

للتواصل مع المؤلف

Email : **kuwaiti27@hotmail.com**

Twitter : **@Abdul_Alrifaee**

Instagram : **abdul_alrifaee**

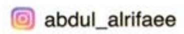
Snapchat : **alrifaee**

Youtube : **www.youtube.com/aalsayed1973**





لم يعد العنوان يحتاج إلى توضيح أو شرح.. وإن كنت لم تقرأ الأجزاء السابقة.. فبإمكانك البدء من هنا مباشرة.. وستفهم كل شيء.. إنني مجرد طبيب نفسي في أوائل الأربعينيات من العمر.. أنقل لك أغرب الحالات والقصص التي مررت بها في مستشفى الطب النفسي.. والواقع أنني أعتبر مرضى الداخل نتاجا طبيعيا ومنطقيا لمرضى الخارج!!.. وربما ستتفق معي في ذلك حين تقرأ هذا الجزء من العنوان الذي اشتهر وبات يعرفه الكثيرون.. **حالات نادرة.**

   
@Abdul_Alrifaee abdul_alrifaee alrifaee